اختيرت ضمن قائمة
أفضل كتب عام 2024
بواسطة OPRAH DAILY

إنجفل هـ. ريسهاو

# تُشرِق ساطعة

ترجمة عن النرويجية:
شيرين عبد الوهاب - سها السباعي

منشورات حياة

وُلِدت إنجفل هـ. ريسهاو في 1978، ونشأت في أوسلو. تُرجِمت أعمالها إلى عشر لغات. حصلت على عدة جوائز، منها: جائزة براغه، وجائزة النقد، وجائزة ب. و. إنكستس.

في عام 2021، صدرت رواية ***تُشرِق ساطعة*** في النرويج والسويد والدنمارك في وقت واحد، واستُقبِلت بحفاوة كبيرة في الدول الثلاث، بعد ذلك أصبحت ظاهرة بين القرَّاء في أوروبا.

# قالوا عن الرواية

«رواية رقيقة، تفعل ما تعدُ به تمامًا: تُشرِق ساطعة»

*Oprah Daily*

*ضمن أفضل كتب 2024*

«جوهرة صغيرة مشحونة بالعاطفة... مع تطوُّر القصة، ينفطر قلبك على الطفلتين وعلى أنفسنا أيضًا في هذا العالم الذي بنيناه، حيث المال له قيمة أكثر من اللطف».

*نيويورك تايمز*

«برؤية صادقة من الطفلة رونيا، تستعرض الرواية المصاعب التي تواجه طفلة في ظل والد مدمن، والغرباء الطيبين الذين يمدّون يد العون، من بينهم جار مسنّ وعامل في محل بيع الأشجار يستعد ليصبح أبًا. قصة مؤثرة، تسأل بلا كلمة واحدة زائدة: كيف نواصل حين يتلاشى الأمل وتثقلنا الحياة؟ الجواب في الخيال، والترابط الإنساني»

*Booklist*

«ساحرة... اختيار ريسهاو أن تحكي القصة من منظور طفلة في العاشرة كان موفقًا؛ فصوت رونيا يعكس أملًا حقيقيًا وسط ظروف قاسية، بالإضافة إلى لمحات من حكمة تفوق عمرها».

*Publishers Weekly*

«كل ما يجب أن تكون عليه قصة عن الكريسماس: نجوم وعواصف ثلجية، فتاة وقطع كعك الزنجبيل، فكاهة وأمل وفرح. سحر الكريسماس الحقيقي بلغة رائعة. فقط تذكر أن تحضر المناديل عند قراءتها».

*Dagsavisen* ـ *النرويج*

«تبتكر ريسهاو شخصيات واضحة ومتعددة الأبعاد في الآن ذاته. حكاية حيوية تدفعك للضحك والبكاء، تثير الغضب والوعي الطبقي، ولا تخلو من سحر الكريسماس».

*Adresseavisen* ـ *النرويج*

«ربما ستظل هذه الرواية معي طوال حياتي... قصة جميلة بشكل مذهل، تقف عند تقاطع بين أستريد ليندغرين وكريستيان أندرسن، بمستوى أفضل ما كُتب في الأدب الاسكندنافي».

*FriFagbevegelse* ـ *النرويج*

«تمتلك كل مقومات الرواية الكلاسيكية. تصنع ريسهاو من رونيا وميليسا بطلتين خالدتين تبحثان عن ميلادٍ لا تحده قسوة الكبار ولا فوضاهم ولا نزواتهم العابرة».

*Expressen* ـ *السويد*

«ليست فقط واحدة من أكثر الكتب جاذبية هذا العام، بل أيضًا أصدق روايات الكريسماس التي قرأتها».

*Svenska Dagbladet* ـ *السويد*

«قصة ميلادية شعرية وساحرة، تملك مؤهلات أن تصبح كلاسيكية حديثة»

*Bücher Magazin* ـ *ألمانيا*

«تصوير من وجهة نظر طلفة لكنه قاسي للغاية ومحطم للقلب، عن سلوك الأب، والتبعات التي يخلفها على ابنتيه. والأسوأ من ذلك هو مدى صدقها. من السهل جدًا تصور الآباء المدمنين على الكحول كوحوش غاضبة. وغالبًا ما يتم تصويرهم كذلك في وسائل الإعلام. ولكن الحقيقة غالبًا ما تكون مختلفة».

*Alliteratus* ـ *ألمانيا*

«مؤلمة وصادقة، تُلمّح إلى القصة الخالدة «بائعة الكبريت»، لكنها تحمل كثير من الأمل... رائعة بحق».

*Merkur ـ ألمانيا*

«تمتلك ريسهاو موهبة لا تخطئها العين، في قول الكثير بكلماتٍ قليلة. المعاني والمشاعر تنساب بين السطور، وتدع القارئ يشارك في بناء النص. هذه القصة تستقر في النفس وتبقى فيها. لقد تركتني بدمعة في العين وقلب مفعَّم بالتأثر».

*Litteratursiden ـ الدنمارك*

«أكثر قصة كريسماس محطمة للقلب. أسلوب ريسهاو الواقعي الاجتماعي عبقري. بقليل من الكلمات، وحوارات قصيرة جدًا، تنجح في تصوير مشاعر رونيا الداخلية، حيث يمكنك أن تشعر بترقبها القَلِق، وملاحظاتها المستمرة لتقلبات سلوك والدها، وعواطفها المثقلة».

*Jyllands-Posten – الدنمارك*

«معجزة أدبية صغيرة».

*Les Echos ـ فرنسا*

«تصوير قوي ومؤثر للعلاقة بين الأخوات، يترك أثرًا دائمًا في القارئ».

*Klassekampen*

«لن أخجل من قول إنني بكيت كطفلة، أو بالأحرَّى كامرأة بالغة، عندما قرأت تشرق ساطعة لإنجفل هـ. ريسهاو».

*Babel SVT*

«حكاية مريرة وحلوة عن أعياد الكريسماس».

*رون تشارلز ـ واشنطن بوست*

«تتوازن بدقة بين المعاناة والأمل... رغم كل ما فيها، لا تتخلى إنجفل أبدًا عن روح الكريسماس».

*سام ساكس ـ وول ستريت جورنال*

«الهدية الأدبية المثالية في الكريسماس».

*جوليا فيتالي ـ Air Mail*

«قوة عاطفية غير متوقعة متخفية في حجم صغير... الرواية تشع بالأمل والخير، وتُعد رفيقة مثالية لمواسم الأعياد».

*Shelf Awareness*

«بسيطة ظاهريًا، بريئة على السطح، لكنها قوية وعميقة. ستُنهي الرواية في جلستك الأولى، لكنها ستبقى في قلبك طويلًا».

*كلير ميسود*

قصة من منظور طفلة عن أحزان ومشكلات الكبار، تُروى بأسلوب درامي ساخر وفعَّال. رواية قصيرة ولكنها مؤثرة، ويمكن قراءتها في جلسة واحدة».

*The Spectator – المملكة المتحدة*

«في هذه القصة التي تبدو بسيطة ومباشرة، تصوّر الكاتبة من منظور الطفلة رونيا قصة عائلة محكوم عليهما بالهشاشة، حيث يُضطر الأطفال إلى النضوج أسرع مما ينبغي، والاعتماد على أنفسهم، بل ورعاية آبائهم. رواية آسرة وحزينة ومليئة بالطيبة، تؤلم وتواسي في الوقت ذاته، لكنها قبل كل شيء تمسك بك من الصفحة الأولى حتى الأخيرة. أولئك الذين نادرًا ما يبكون عند القراءة سيجدون صعوبة في كبح دموعهم».

*¡Hola! – إسبانيا*

أفكر أحيانًا في منطقة تويَّان، وأراها كاملة بوضوح. يخرج الناس من متجر كيوي للبقالة يحملون أكياس التسوق، ويدفعون عربات الأطفال أمامهم في الثلج. أرى أطفالًا يركضون إلى المدرسة وتتأرجح على ظهورهم الحقائب. في فترة الراحة، يقف عامل الصيانة بجوار عمود مدخل المدرسة ويدخن. يذوب الثلج، وتتحول أشجار الكريسماس إلى اللون البني أمام البنايات، ويزداد العشب اخضرارًا ويمتلئ بأزهار تنمو من تلقاء نفسها. هذا ما يستمر عليه الحال.

أحيانًا، يمشي الناس باستقامة، ثم يترنحون، ثم يعتدلون في مسارهم مرة أخرى. يُولَد الأطفال ويموت الناس، وفي فترة الراحة بالمدرسة، يستند عامل الصيانة إلى عمود المدخل وينفث دخان سيجارته باتجاه السماء، ثم يفكر بي. كان يدرك كل شيء ـ لقد فهمت هذا الآن ـ حين يرفع بصره إلى أسطح المنازل ويتذكر كل شيء.

قال عامل الصيانة:

ـ هل تقفين هنا؟

وقف أمام عمود المدخل، وسحب علبة السجائر من جيبه. أقف هناك كما أقف دائمًا، وأجيبه بنعم كما اعتدت أن أجيب.

ـ تعرفين أن هذا ممنوع؟

أجبته بما تعلمته من أبي:

ـ وُضِعت القوانين لتُنتهَك.

تساقط الثلج قليلًا، وصاح أحد الأطفال من خلفنا: «واحد.. اثنان.. واحد.. اثنان!» انحنى عامل الصيانة قليلًا وأشعل السيجارة، ثم واصلنا حديثنا.

قلت:

ـ تعرف أن هذا ممنوع؟

ـ وُضِعت القوانين لتُنتهَك. هل وهبتِ طعامكِ كله مرة أخرى؟

أومأت برأسي؛ لأن السنجاب قد أتى بالفعل، السنجاب الوحيد في منطقة تويَّان، وأجمل سنجاب. كان يعرف موعد فترة الراحة بالمدرسة، ويأتي في وقتها. ثبَّت عامل الصيانة السيجارة بين شفتيه،

وأخرج لفافة طعامه من جيبه. فتحها، وقسَّم الشطيرة إلى قسمين، وأعطاني أحدهما. وجدت الشطيرة ساخنة إلى درجة تصاعد البخار. كانت زوجته ماهرة في التغليف.

ـ هذه دورة الحياة؛ أنتِ تعطين السنجاب وأنا أعطيكِ هذا.

ـ ما معنى دورة الحياة؟

ـ فلسفة. أنا هنا عامل صيانة كما تعرفين، لكن، في بلدي، كنت فيلسوفًا كبيرًا.

التفت، ونفث دخانه بعيدًا عني.

ـ هذه ميزة أن يكون المرء أجنبيًّا؛ يمكنكِ دائمًا أن تروي ما كنتِ عليه في بلدكِ.

ـ لكن هل تكذب؟

ـ على الإطلاق. أو ... في الحقيقة، كنت أكبر كاذب في بلدي، حتى إنني ربحت في المسابقة القومية للكذب.

ـ ياه!

ـ ثمة أمر آخر. هل رأيتِ اللافتة هناك؟

وأشار بإصبعيه الممسكتين بالسيجارة.

***«مطلوب بائع لأشجار الكريسماس. لا بد أن تكون ملتزمًا ومسؤولًا وتحب العمل في الهواء الطلق».***

كانت اللافتة معلقة على عمود النور. بالأسفل، كُتِب رقم هاتف.

ـ ربما تكون هذه وظيفة مناسبة.

ـ أعتقد أن من الصعب حصول شخص في العاشرة من عمره على عمل.

ـ لم أكن أعنيكِ.

توجه إلى عمود النور، ومزق الجزء الذي يحمل بيانات التواصل، وعاد بها إليَّ.

ـ أريها لأبيكِ.

كان الثلج يذوب حول الورقة.

ـ إذا تقدم لهذه الوظيفة فعليه أن يقول إنه يعرف ألفرِد؛ لأن ألفرِد هو الذي يُورِّد لهم أشجار الكريسماس.

ـ لكن هل هذا صحيح؟

ـ صحيح أم لا. أنا أعرف ألفرِد، وأنتِ تعرفينني، وأبوكِ يعرفكِ. هذه دورة الحياة.

أومأت.

ـ بالمناسبة، يمكنكِ أخذ اللافتة كلها.

ثم ذهب ونزع الشريط اللاصق وطوى اللافتة.

ـ ممنوع تعليق اللافتات هنا.

ـ لكن ماذا إذا أراد شخص آخر أن يتقدم للوظيفة؟

وضع عامل الصيانة اللافتة في جيبه. ظل الثلج يتساقط على قبعته الصغيرة.

ـ بالضبط، لذلك أنتِ تقفين هنا أمام فيلسوف كبير.

حين عدت إلى المنزل، وجدت أبي يقف بجوار طاولة المطبخ. رفع بصره، وغطى عينيه بيديه.

ـ هل أشرقت الشمس؟ أين نظارتي؟

ابتسم، وأنا أيضًا ابتسمت، ثم تلاشت ابتسامته.

ـ تعالي واجلسي هنا قليلًا.

فرك جبهته، لكنني لم أعد أستطيع سماع كلماته المعتادة: «*لا يجب أن يعيش الأطفال على هذا النحو؛ الإسفلت وكل هذه الأمور المقززة*». ثم أردف: «*لستما غبيتين. لا يمكن لأحد أن يقول ذلك. وقد قضيتما أوقاتًا طيبة أيضًا. بالتأكيد تتذكران الخيمة في الصيف، وأيضًا تتذكران ذلك الكوخ في الشتاء؟*» أجبت بنعم، ولا، ونعم. لم يكن لديَّ طاقة لمواصلة الكلام، فأخرجت اللافتة وألقيتها على الطاولة.

ـ بائع أشجار الكريسماس؟!

بدأت اللافتة تعود إلى وضع الطي، ففردتها وأمسكتها بين يديَّ. رفع بصره، وأردف:

ـ لكن العمل في بيع أشجار الكريسماس يصلح للقرويين القادمين من منطقة توتان يا رونيا.

ـ هذا أفضل من لا شيء.

نظر إلى اللافتة مرة أخرى، ونهض فجأة وتوجه إلى نضد المطبخ. أخذ غلاية الماء، وفتح الصنبور.

ـ أنتِ لستِ غبية. لم تكوني غبية قط.

ملأ الغلاية بالماء. أحب كثيرًا أن أراه وهو يشرب القهوة، وحين يُحضِر سروال الجري ويرتديه، ويتطلع خلال النافذة، ويذرع المكان ذهابًا وإيابًا. أحب ذلك، وأتذكر جميع الوظائف التي شغلها. كانت أفضل وظيفة حين عمل خبازًا؛ لأنه أحضر الكعك وهو عائد إلى البيت. وكنت، عندما آخذه في اليوم التالي إلى المدرسة، ينحني جميع الأطفال على علبة طعامي ويقولون: «*عجبًا!*» قال أحدهم، وكان اسمه موسى: « *أنتِ محظوظة دائمًا*». وقالت ستيلا: «*تعرفين أن هذا ممنوع؟*» فقال موسى: «*اهدئي يا ستيلا؛ جميع من في الفصل يُحضِرون شيئًا حلوًا مع طعامهم*».

كان عمل أبي في متجر كيوي للبقالة جيدًا أيضًا، وأيضًا حين كان ينظف عربات الترام. قال لي أحد التلاميذ: «*يعمل أبوكِ في متجر كيوي للبقالة. هل يمكنه أن يحصل لي على خصم على كاكاو ليتاجو؟*» وقال آخر: «*يعمل أبوكِ في تنظيف عربات الترام. هل يمكن أن تطلبي منه عدم مسح ما كتبه أخي؟*» كانت أسوأ وظيفة هي وظيفة الشاعر، عندما كتب أن الفكرة سجينة، مثل عصفور في قفص، ووقف يبيع قصائده أمام الكشك. لم يعجبني ذلك. لكنني عشقت صوت غلاية الماء. يا له من شيء بسيط!

قالت ميليسا:

ـ أنتما تحلمان أكثر مما ينبغي. لو كان الحلم وظيفة لكان بوسعنا الانتقال إلى هولمانكولين؛ الحي الأرقى في أوسلو.

وصل الماء إلى الغليان. رفع أبي الغلاية بينما امتلأ رأسي بالأحلام؛ لأني كنت أعرف أين تُباع أشجار الكريسماس، وفكرت أن بإمكاني الذهاب إلى ذلك المكان مباشرة بعد المدرسة. سأجد أبي يمشي بين الأشجار مرتديًا كنزته، وسأقف بجوار محطة الوقود وأراه وهو يبتسم للزبائن ويضع النقود الكثيرة في محفظة سميكة، ثم يقبض أجره، وحينها، نستطيع أن نشتري لميليسا شيئًا ما، لا أعرف ما هو، لكن أي شيء تتمناه، وسيكون بوسع أبي شراؤه والعودة إلى البيت، ليقول لي: «*تعالي هنا*، بجوار الحمام». ويهمس: «*انظري. أليس هذا شيئًا ستحبه فتاة في السادسة عشرة من عمرها؟*»

أعتقد أن أبي سيكون الشخص المسؤول عن توصيل شجرة الكريسماس إلى المدرسة أيضًا. وتخيلت ما سيكون عليه المشهد: سينحني مارون على النافذة ويصيح: «*لقد أتت شجرة الكريسماس! لقد أتت شجرة الكريسماس! انظروا. هذا والد رونيا. نعم!*» وتقول المعلمة: «*اجلسوا. ابقوا في أماكنكم*». لكن الجميع يركضون إلى النافذة. وهناك، في الأسفل، نرى الناظرة تمشي في ساحة المدرسة لمقابلة أبي، ومعطفها بين ذراعيها، ثم تشير إلى صالة الألعاب. يتطاير طرفا حزام الكروشيه، الذي ترتديه، في الهواء، ويرسم أبي

ابتسامة عريضة، ويسحب الشجرة بين عمودي المدخل، ويصيح كل تلاميذ الفصل: «*واو!*» هكذا تخيلت الأمر.

وقف أبي بجوار النافذة متطلعًا إلى الخارج. ما زال الثلج يتساقط، وهو يمسك بكوب القهوة أمام صدره. كان مطبخنا خاليًا تمامًا.

ـ ربما بوسعنا أن نحصل على شجرة كريسماس هذا العام.

ـ ماذا قلتِ؟

ـ أقصد، إذا أصبحت بائع أشجار كريسماس، أفلَن نتمكن حينها من الحصول على واحدة؟

ـ بالطبع.

التفت نحوي.

ـ ألا تظنين أن الموظفين يحصلون على خصم يا ابنتي الجميلة؟

ـ بالطبع.

ـ أو ربما يحصلون عليها مجانًا.

أومأت؛ لأنني اعتقدت ذلك أيضًا.

كان أبي دائمًا يدعوني «ابنتي الجميلة». يقول: «يا ابنتي الجميلة» و«يا كنزي».

كان يسمينا «النجمة» و«القمر» و«حلوى المكرون» و«السكر المطحون». يسمينا «رونيا الجميلة» و«ميليسا نور القمر». يدخل من باب البيت ويقول: «*أين ابنتي الجميلة؟ وأين نور قمري؟*» ونرد: «*هنا. نحن نتناول الشوفان*».

ـ هل تعتقدين أنه سيحصل على هذه الوظيفة؟

كنت مستندة إلى ذراع ميليسا وأنوار السيارات تنعكس على السقف.

ـ لا، لا أعتقد ذلك.

كانت تعبث في ورق الحائط الممزق.

ـ لكن تخيلي إذا حصل على الوظيفة فحينها أنتِ أيضًا ستودين أن نحصل على شجرة كريسماس.

كفَّت ميليسا عن العبث في ورق الحائط.

ـ ألا تحبين شجرة الكريسماس؟

ـ رونيا، تتكلف شجرة الكريسماس 600 كرونة تقريبًا.

في الخارج، تصاعد بوق سيارة، وصاح أحدهم: *«انظر أمامك يا رجل!»*

قالت ميليسا:

ـ الأرض زلقة. لقد تجمدت مياه الأمطار.

ـ لكن ألا تعتقدين يا ميليسا أن بائع أشجار الكريسماس يحصل على خصم؟

ـ لكن بائع أشجار الكريسماس لا يعمل. أنتِ تنسين ذلك. حاولي التفكير في شيء آخر.

لكنني لم أرغب في التفكير في شيء آخر. أغمضت عينيَّ، وهكذا، امتلأ رأسي بأشجار الكريسماس.

ـ لكن ألا تظنين أن زعمه معرفة ألفرِد سيساعده؟

ـ بلى. هل يمكننا أن ننام الآن؟

ـ لكنه إذا قال إنه يعرفه، وحصل على الوظيفة، وكان للموظفين خصم، أتساءل: هل حينها سترغبين في تزيين الشجرة على الفور أم ستفضلين الانتظار إلى الكريسماس؟

نظرت ميليسا إليَّ.

ـ لكنني لا أريد أن أحلم هكذا.

ـ قليلًا فحسب. نحلم قليلًا فحسب.

ـ اللعنة!

بدأت تستسلم. لاحظت ذلك. نظرت إلى السقف، وتراخى جسمها. أمسكت يدي التي كانت تحت اللحاف.

ـ نعم، إذا حصلنا على شجرة كريسماس.

ـ أجل.

ـ حينها، سنأخذها ونضعها في غرفة المعيشة.

ـ لكن بدلًا من غرفة المعيشة، هل يمكنكِ القول إنها ستكون داخل كوخ العطلات؟

نظرت إليَّ.

ـ لا أفهم. تعرفين تمامًا ما سأقوله. لماذا لا تقولينه بنفسكِ؟

ـ ميليسا حبيبتي.

أغمضت عينيها.

قلت:

ـ حسنًا. الشجرة الآن داخل الكوخ، في أعماق الغابة، وفي الكوخ، مدفأة حطب، وأيضًا الوقت الآن صباح الكريسماس، وما زال الظلام مخيمًا.

ـ نعم. هيا بنا لنخرج إلى غرفة المعيشة ونضيء أنوار شجرة الكريسماس. حينها، ستكون إضاءتها مبهرة.

ـ نعم، مثل قصة البنت والكبريت.

ـ لا تفكري في هذه القصة؛ لأنها أشد القصص حزنًا.

ـ هل تذكرين تلك الشجرة التي كانت البنت تقف وتتطلع إليها؟

ـ كل هذه تخيلات، لا تفكري بها. في النهاية، ماتت البنت.

ـ لا، لم تمت، عادت إلى جدتها.

تنهدت ميليسا، وهزت رأسها، ثم وضعت وجهها مقابل وجهي، وفمها قريبًا من أذني، وتكلمت بصوت منخفض عن زينة الكريسماس والمدفأة والدخان المتصاعد نحو السماء، وعن أعماق الغابة.

عليكِ أن تجدي الطريق؛ لأنكِ ستفهمين حين تجدينه. سيبدو الطريق مثل درب في الغابة، وعلى الأشجار ثلج، وهي تنحني فوقكِ حين تبدئين في المشي، وتستمرين في المشي. من السهل أن تمشي على الدرب؛ لأن الثلج دُهِس إلى درجة التماسك. ثم تنفتح أمامكِ الغابة، وترين البحيرة متجمدة وبيضاء. والتل هناك، حيث صنع الثعلب جحرًا لنفسه. وفي الأعلى، سترين نقطة تجمع المتزلجين. ستواصلين المشي، وحينها، ستعرفين ما سترينه.

صاح أبي:

ـ يا بنات! لقد حصلت على الوظيفة.

حدث هذا في اليوم التالي بعد المدرسة. كنا جالستين إلى الطاولة نأكل الشوفان بالحليب بشراهة. وقف أبي بجوار باب المطبخ. ابتسم، وألقى سترته الجلدية على الأرض، وتقدم نحونا، ووضع عدة أوراق على الطاولة.

ـ لقد حصلت على الوظيفة.

تركت ميليسا الملعقة في الطبق.

ـ تهانينا! متى ستبدأ؟

ـ غدًا.

قالت:

ـ إذن يجب أن تضبط المنبه.

ـ إنها وظيفة مثالية؛ يبدأ العمل في العاشرة صباحًا.

اعتاد عامل الصيانة أن يقول: «إن المعجزات قد تحدث. أحيانًا لا يكون ثمة بديل آخر، وهنا، تحدث المعجزة».

حين عدنا إلى المنزل في اليوم التالي، لم يكن أبي موجودًا. جلسنا إلى طاولة المطبخ، وأكلنا الشوفان مرة أخرى. خيم الظلام بالخارج ولم يعد أبي إلى المنزل بعد.

قلت:

ـ هل تعتقدين أنه في العمل؟

قالت ميليسا:

ـ أنا لا أعتقد شيئًا. الاعتقاد مكانه المسجد.

ـ لكن إذا كان عليكِ أن تخمني فأين تظنين أنه سيكون؟

فجأة، فُتح باب البيت، وفُزِعت.

صاح أبي:

ـ مرحبًا. الجو لطيف ودافئ في الداخل!

توقفت ميليسا عن الأكل. خلع أبي الحذاء من قدميه، وتوجه نحونا وهو لا يزال مرتديًا قبعته الممتلئة بالإبر المتساقطة من أشجار الصنوبر، ووضع قفازيه على المدفأة. كان في العمل، وعاد إلى البيت. فتح دولاب المطبخ، وأخذ عبوة من الاسباغيتي، ووضعها

في قِدر. خرج إلى الردهة، وفتش في الأدراج، وقال إنه يحتاج إلى عدة قفازات.

ـ لا تعرفان إلى أي مدى تكون إبر الصنوبر محملة بالماء في هذا الوقت من العام. الذي لا يعمل في هذا المجال لا يعرف.

ثم جلس إلى الطاولة، وبدأ يحكي لنا. كان في العمل، وعاد مباشرة إلى البيت. كنت أعرف فيم تفكر ميليسا: أن هذا الوضع لن يستمر. هذا ما فكرتْ فيه، لكنه استمر.

هكذا استمر الوضع: كل يوم، نأكل الاسباغيتي. كل يوم، يخبرنا عن العمل. قال إن رئيسه في العمل ديكتاتور من نوع ما، وإن الأشجار ثقيلة مثل الخنازير، لكنه ابتسم. وضع الكاتشب على الاسباغيتي، وقال إنه يشعر بتيبس في عضلات رقبته ومؤخرته وأصابعه. لفت ميليسا الاسباغيتي حول الشوكة وخفضت بصرها، لكنني بقيت محملقة في وجه أبي لأن المعجزات قد تحدث، وقد حدثت. أخبرنا أن شهر نوفمبر موسم بيع أشجار الكريسماس. أخبرنا عن تقطيع الأشجار وترتيبها، ودار المسنين التي يجب أن تضع شجرتين أو ثلاثًا بالتتابع؛ لأنهم يحتفلون في الدار لفترة طويلة. «*لا يجوز أن نضع للمسنين شجرة بلاستيكية؛ لأنهم يستحقون أن يتمتعوا بشم رائحة شجرة الصنوبر*». كان يحكي وهو يغسل القِدر، ويكمل الحكي وأنا أنهي واجباتي المدرسية. يجلس على غطاء المرحاض وأنا أغسل أسناني، ويحكي لي عن المزرعة في إيانابك، وعن المزرعة في موس، وعن الشجرة التي سنشتريها، اسمها فيوردجران، هذا إذا كنا سعداء الحظ وبقيت منها عدة أشجار حين يحين موعد قبض المرتب. وفي النهاية، يجلس على طرف السرير يمشط شعري ويحكي عن جميع أنواع أشجار الصنوبر، إلى درجة أنني لم أعد أذكر الأنواع التي أخبرني عنها.

مر الإثنين والثلاثاء والأربعاء وهو ما زال يحكي عن الكوخ الذي سنشتريه لو حصل على وظيفة بدوام كامل. ثم جاء الخميس، والجمعة، وظل يتكلم عن الطريق، ونقطة تجمع المتزلجين، وكيف سنجلس في مكان ساحر نراقب المجموعات النجمية. ثم جاء شخص ما وطرق الباب.

ترك أبي شعري، ونهض عن السرير. لم نكن من الناس الذين يطرق أحد أبوابهم. الوحيد، الذي كان يطرق بابنا، شخص اسمه آرونسون، وكان يقول إنه سيتصل بالشرطة، لكنه لم يفعل ذلك قط. لكن، في الماضي، عندما كنت طفلة صغيرة، اعتقدت أنه سيفعل ذلك. يقف هناك مرتديًا رداءه المنزلي وأنا متشبثة برجل أبي وأصيح: «*لا تتصل! لا تتصل!*» إلى أن ينظر آرونسون إلى أسفل ويقول: «*شششش. لن أتصل بأي شخص، فقط أحاول أن أجعل أباكِ يفهم الأمر*».

خرج أبي إلى الردهة، وسمعته يفتح الباب. أمسكت طرف اللحاف وعضضته.

قال أبي:

ـ مرحبًا.

قالت السيدة:

ـ كيف حالك؟ لم أرَك منذ مدة طويلة.

كانت سونيا.

ـ كنت أتساءل: هل حدث شيء ما؟

نعم، لقد كانت سونيا. قابلتها في حانة تُسمَّى «الأصدقاء»، ورأيت كيف تميل على أبي فوق الطاولة. كرهت هذا المكان المسمى بالأصدقاء. اعتادت ميليسا أن تقول: « *المفترض أن يُسمَّى الأعداء! المفترض أن يُغلَق هذا المكان*». وقابلتها أيضًا في ستارجيت، وكرهت ستارجيت أيضًا؛ النجوم أعلى الباب، والظلام في الداخل، والطاولة الخاصة بهما في الركن في آخر المكان. كنت أضطَر إلى المرور في كل هذا الظلام كي أعثر عليه. هناك، تجلس سونيا دائمًا وتبتسم، وأيضًا تأتي وتجلس على أريكتنا وتتكلم معي. كرهت رائحة أنفاسها. والآن، تقف في الردهة وتسأل أبي: «*هل حدث شيء ما؟*»

قالت سونيا:

ـ لقد تساءلوا جميعًا عن سبب غيابك. لا بد أن يعتني بعضنا ببعض؛ لأنه لن يعتني بنا أحد.

ـ لم يحدث شيء. أنا أعمل الآن فحسب.

ـ رائع! لكنك ستعود قريبًا، أليس كذلك؟

واصلت عض طرف اللحاف.

قال أبي:

ـ سأحاول؛ لأنني لا بد أن أستيقظ مبكرًا كما تعرفين.

ثم تحدثا بصوت منخفض، وسمعت سونيا تقول:

ـ تبدأ عملك في الساعة العاشرة؟ إذن لديك وقت كافٍ للنوم.

ـ صحيح.

ـ لماذا لا تأتي هذه الليلة؟

توقفت عن العض. كان الهواء يصفر في أذني. وسمعت أبي يهمهم في الردهة، والجار يدفق الماء في المرحاض.

قال أبي:

ـ ليس الليلة. اليوم، سأستريح.

شعرت بالدوار. قالت سونيا شيئًا لم أسمعه لأن قلبي دق بصوت عالٍ. كان عليَّ أن أستلقي على بطني وأضغط عليه كي لا تزيد دقات قلبي.

ظل جالسًا على طرف السرير. كل ليلة، يظل جالسًا على هذا النحو، يفك تشابكات شعري، ويحكي عن الغابات العميقة والدروب الضيقة، ويذكر أسماءها: «*غابة فِن. بحيرة ديب. منطقة فاموند. لكن الوقت تأخر الآن، ويجب على كنزي أن تنام*».

ذات يوم، عدت إلى البيت مع ميليسا. ركلنا أحذيتنا، واتجهنا إلى المطبخ، وفتحنا الثلاجة التي كانت ممتلئة.

ـ ها! انظري!

ـ نعم.

نظرت إليها وقلت:

ـ انظري! هذا طعام الكريسماس!

ـ نعم. لنأكل.

فتحتْ درج الخبز وقطعت كثيرًا منه، وأحضرت أطباقًا وجبنًا ولانشون ومعجون الكبد. كانت كرتونة الحليب مزينة بصور بابا نويل وعربته. صبت الحليب والعصير ومشروب الكريسماس الغازي في أكواب مختلفة. فردت كثيرًا من الزبد على الشطائر، وأكلت كل منا أربع شطائر، لكنها لم تنظر نحوي.

كنا نرتشف مشروب الكريسماس عندما حضر أبي يحمل في يديه كثيرًا من أكياس التسوق. وضعها على الطاولة وابتسم.

قالت ميليسا:

ـ كيف استطعت أن تدفع مقابل كل هذا الطعام؟

ـ ماذا؟! بالمناسبة .. مرحبًا؟!

ـ مرحبًا. لكن كيف استطعت شراء كل هذا الطعام؟

ـ طلبت دفعة مقدمة.

وانحنى لإفراغ بقية المشتريات، ومنها، كاكاو أوه بوي.

قال:

ـ هذا هو.

وأمسكه بيده:

ـ هل هذا ما تحبين؟

أومأت.

قالت ميليسا:

ـ وحصلت عليها؟ الدفعة المقدمة؟

ـ إيريكسن شخص طيب، ووافق.

وفتح دولاب المطبخ.

قلت:

ـ ما معنى دفعة مقدمة؟

قالت ميليسا:

ـ لماذا تحتاج إلى دفعة مقدمة؟

ـ هل نحن في جلسة تحقيق؟!

ـ فقط أتساءل. لماذا تحتاج إليها؟

ـ من أجل الكهرباء.

نزع غلاف ورق التجفيف، وأردف:

ـ من أجل الطعام، وأغراض الكريسماس، وحتى ورق التجفيف هذا.

سألت مرة أخرى:

ـ ما معنى دفعة مقدمة؟

لكن لم يجبني أحدهما.

دخل أبي الحمام وفتح الصنبور.

هذه الليلة، جلست ميليسا في سريرها وهي تنظر إلى يديها. نهضتْ وتطلعت من النافذة. دخل أبي المطبخ، ثم الحمام، ثم غرفة المعيشة. ظل يتجول بين الغرف. ولم يُعِدَّ أحد الاسباغيتي. ثم حل الليل، ودخل أبي الغرفة.

ـ حسنًا. أريد أن أخبركما أنني سأخرج قليلًا.

قالت ميليسا:

ـ حسنًا. سآتي معك.

نهضت ووقفت في منتصف الغرفة أسفل المصباح.

قال أبي:

ـ لماذا؟

ـ سأذهب إلى المتجر. معك الآن نقود الدفعة المقدمة.

قلت:

ـ ما معنى دفعة مقدمة؟

لم ينظر إليَّ أحد، فقط، تبادلا التحديق أحدهما إلى الآخر.

قال أبي:

ـ إنها نقود.

قالت ميليسا:

ـ نقود يأخذها قبل الانتهاء من العمل. لكن المرتب يتقاضاه المرء بعد الانتهاء من العمل.

قال أبي:

ـ لكن لا بد أن نُروِّح عن أنفسنا قليلًا. سيحل الكريسماس قريبًا؛ لذا يجب أن يستمتع المرء بعض الشيء.

ـ إذن، أنت تفكر في ستارجيت؟

ـ اممم!

ـ تفكر أن تستمتع في ستارجيت؟

ـ لا، كنت أفكر في شراء بعض هدايا الكريسماس من أجلكما. هل هذا مسموح؟ هل ستسمحين لي بذلك يا ميليسا؟

عند ذلك، لم تتفوه ميليسا بكلمة؛ لأن أبي ظل يحدق بها حتى اضطُرَّت إلى الالتفات إلى الجهة الأخرى، وعادت إلى الجلوس في السرير.

بعد ذلك، حين كنت مستلقية تحت اللحاف، تذكرت كل شيء كان عليَّ فعله. كان بوسعي أن أقول: «*لا نريد أي هدايا هذا العام*». وكان عليَّ أن أذهب إلى إيريكسن وأقول: «*لا تعطِ أبي دفعة مقدمة*». وكان عليَّ أن أطرق باب آرونسون وأقول: «*هل يمكنك أن تنتبه إلى محفظة أبي؟*» لكنني لم أفعل أي شيء من هذا. وقفت مع أبي في الردهة كالغبية الصغيرة وقلت: «*هل ستشتري لنا الهدايا؟ هل أخبرك بما أريده؟*» وحينها، لم أتذكر أنني أريد أي شيء، لم أتذكر ما أريده، لكن، مع ذلك، قلت أشياء كنت أريدها منذ وقت طويل: حبل للقفز، دمية، أقلام تلوين سحرية. وقال أبي: «*حسنًا. هذا جيد*». ثم أخذ سترته الجلدية من على المشجب وقال: «*إلى اللقاء يا فتيات. ربما أتأخر لأن ثمة أشخاصًا أدين لهم ببعض الكرونات أيضًا*».

قلت:

ـ هل يمكن أن آتي إليكِ قليلًا؟

أومأت ميليسا. نمت على ذراعها. نبح كلب خارج النافذة.

قالت:

ـ الحياة تستمر.

ـ كان عليَّ أن أطلب منه هدايا أبسط من ذلك. ليس سهلًا أن يشتري كل تلك الهدايا.

نظرت إليَّ ميليسا بعينيها الجميلتين الغائمتين.

أردفت:

ـ على الأقل، لن يستطيع أن يشتري الهدايا في المساء.

ـ لن يشتري أي هدايا. إنه في حانة ستارجيت أو في حانة الأصدقاء.

حينها، انكمشت كحصاة صغيرة.

قلت:

ـ لا بد أن تُسمَّى «حانة الأعداء».

نامت ميليسا على جانبها، وأزاحت شعري عن وجهي.

أردفت:

ـ لا بد أن يُغلَق ذلك المكان.

ـ اعتقدت ذلك أيضًا من قبل.

ـ ماذا؟!

ـ لم أعد أفكر هكذا الآن. لن يفيد ذلك. هل تذكرين حين كان ممنوعًا من دخول حانة ستارجيت فذهب إلى حانة الأصدقاء؟ وإذا طُرِد من حانة الأصدقاء فسيذهب إلى متجر كيوي للبقالة الذي يبيع البيرة أيضًا.

مرت على حاجبيَّ بإصبعها؛ حاجبي الأول ثم الثاني. في الخارج، نبح الكلب مرات ومرات.

قالت ميليسا:

ـ هذا كلب الرجل المتشبه بالنساء. لا يفهم كم هو صغير الحجم!

اقتربت بأنفي من رقبتها، وظل الكلب ينبح.

أردفت ميليسا:

ـ لا تأملي في أي شيء.

لكن لا أستطيع أن أفقد الأمل. هكذا يعمل عقلي. آمل أن يدمر شخص ما كل ستارجيت، ويغلق كل صنابير البيرة في العالم. لكن هذا لن يحدث؛ لأن البيرة تنزل من الصنابير في كل مكان. غاص عقلي في السواد. لم يكن لديَّ ما أقوله. سيستمر هذا الوضع إلى ما لا نهاية: سأفكر وأفكر وأفكر، ثم يأتي الليل؛ لأنه دائمًا يأتي. وهذه ليلة أول ديسمبر. نمت بهدوء على ذراع أختي.

دائمًا، تأتي أيام مثل هذه. لقد مررت بها من قبل، وأعلم أنها آتية، وأعلم أنها ستنتهي أيضًا، وأعلم كيف ستنتهي: سينتهي اليوم بجلوس أبي إلى طاولة المطبخ وهو يقول: «*عذرًا يا فتيات، لقد تغيرت الأمور*». وتفتح ميليسا الدرج وتخرج ملعقة. ويقول أبي: «*هل تسامحنني يا فتيات؟*» وأومئ، فيقول أبي: «*أنتِ أيضًا يا ميليسا؟*» وتتوجه ميليسا إلى الثلاجة وتجيب: «*ليس لديَّ خيار آخر*».

ونعرف حينها أن الأمر انتهى. ترتعش يداه وهو يمسك كوب القهوة، فيمتلئ سطح القهوة بالفقاقيع. لكنه ينظر إلينا ويقول: «*هل أعد لكما اللحم المقدد والبيض؟*» ثم يخرج، ويشتري الأغراض، ويعود إلى البيت مرة أخرى. حينها، تصبح النهارات مضيئة، والليالي حالكة وصامتة. حينها، لا يكون لدينا سوى الشطائر وكثير من الفواتير والجبن والبيض واللحم المقدد. ويقول أبي: «*ميليسا، يا قمري، هذه المرة الأخيرة. لكن هل يمكنكِ المجيء إلى هنا قليلًا؟ هل يمكنكِ الاتصال بهؤلاء الأشخاص نيابة عني؟*»

تجلس ميليسا إلى طاولة المطبخ، وتبدأ في الاتصال بكل هؤلاء الأشخاص، وتقول أمورًا مختلفة. أحيانًا، تقول: «*لم نحصل على الفاتورة الأصلية*». وأحيانًا، تقول: «*إنه مستلقٍ هنا ومصاب بالتهاب*

*رئوي»*. وأحيانًا، تقول فحسب: *«مرحبًا. نحن طفلتان من دون أم وأبونا مدمن كحول. هل يمكنك أن تمنحنا مهلة لأسبوعين آخرين؟»* ثم يأتي الربيع والصيف والخريف، ويعمل أبي، ويقف أمام حوض المطبخ ويغسل علب الطعام. وفي الليل، يدخل غرفتنا ليقول: *«تصبحان على خير»*. ثم يظل واقفًا عند الباب متطلعًا إلينا، ويربت على جيبه ويقول: *«أين نظارتي الشمسية؟ ستؤلمني عيناي»*. حينها، تكون ميليسا سعيدة أيضًا، وتبدأ في الخروج ليلًا، وأسمعها تضحك من النافذة. لا يعجبني هذا، لكن أبي يقول: *«إنها شابة يا رونيا. هل نلعب الورق؟»*

ثم تأتي ليالي الصيف حين يدق المطر على النافذة ونلعب لعبة كازينو على طاولة المطبخ، أو أيام الصيف حين نحزم أغراضنا ونذهب إلى جزيرة، ونتبادل أنا وأبي الابتسام تحت الماء، وأسبح إلى المحيط الكبير وهو يرفع بصره إلى السماء ويقول: *«هكذا، يجب أن يعيش الأطفال»*. بعد ذلك، نجلس على الشاطئ، ويرفع الكابوريا ويمسك ذراعها مصافحًا ويقول لها: *«مساء الخير! مساء الخير!»* كي لا أخاف منها. أو في وقت الخريف المظلم وهو يحكي لي عن الكوخ الذي سنشتريه. يحملني إلى الغرفة، ويقول إنه يحملني عبر الثلج، وإننا في غابة كبيرة، لكننا في أمان داخل كوخنا. يضعني في السرير، ويقول إن الثلج يرتفع لعدة أمتار على الجدران، ويُحكِم اللحاف حول ساقيَّ ويقول: *«هكذا، ارفعي قدميكِ المنمنمتين»*. وهكذا، ينتهي الأمر. لكن، قبل أن ينتهي، يجب أن يستمر، ويستمر بفقدانه هذه الوظيفة أو تلك، وتصبح الثلاجة خاوية، ويأتي الناس

ويجلسون على الأريكة ويقولون: «*مرحبًا. هل هذه رونيا؟*» ويقول: «*ابتسمي قليلًا*». ولا أجيب؛ لأنني لا أعرف بماذا أجيب.

ـ متى تعتقدين أنه سيأتي؟

قالت ميليسا:

ـ الاعتقاد مكانه المسجد.

ـ لكن ما الذي تعتقدينه أنتِ؟

ما زلت مستلقية وأنفي قريب من عنقها. أصبح عنقها رطبًا بفعل أنفاسي.

قالت:

ـ أعتقد أنكِ يجب أن تنامي الآن. أغمضي عينيكِ. يمكنني أن أحكي لكِ عن كوخكِ.

لا بد أن ثمة غابة، والثلج على الأشجار، وأحيانًا، بحيرة، وأحيانًا، مستنقع. لكن الدرب، الذي نمشي عليه، موجود دائمًا تحت أشجار مائلة، والغابة دائمًا بلا نهاية، ودائمًا، ثمة كوخ وحيد في وسط الغابة. اذهبي وانفضي الثلج من على ثيابكِ، وأغلقي الباب خلفكِ. أغلقي الباب بالقفل؛ فلن يخرج أحد اليوم مرة أخرى. في الخارج، تقفز الأرانب، وتركض الثعالب، وتعوي الذئاب، لكن، داخل الكوخ، نشعل المدفأة طوال الليل وإلى أن نستيقظ، ويمكنك أن تنفخ في الجمر.

قالت ميليسا:

ـ يجب أن تستيقظي.

فتحت عينيَّ ورأيت الضوء.

أردفت:

ـ سأخرج.

ـ لماذا؟ إنه يوم الأحد!

وقفت بجوار النافذة وأغلقت أزرار قميصها؛ قميص أبيض لم أرَه من قبل.

ـ نعم، لكنني سأخرج.

نهضت وكانت الأرض باردة. مشيت نحو النافذة، ورأيت ما رأته. الشمس والصقيع يكسوان كل شيء بالأسفل. كان الرجل المتشبه بالنساء يمشي ويضع كلبه في حقيبته. بدأ اليوم، وبدأ الناس ينشغلون بشؤونهم. وأنا لا أحب الاستيقاظ بعد أن يبدأ الناس في الانشغال بشؤونهم. رأيت أيضًا موسى يجري مرتديًا سترته الجينز، ووالده يجري خلفه. بالتأكيد سيذهبان إلى المسجد. دائمًا، يذهبان إلى المسجد، ودائمًا، مشغولان.

التفتُّ إلى ميليسا. كان قميصها ناصع البياض. لا أحب أن تذهب إلى أماكن مختلفة. لا أحب أن أرى كثيرًا من الناس وهم يفعلون أشياء كثيرة، ولا أحب أن أرى موسى ووالده. أحسدهما. أحسد الناس الذين يؤمنون بالرب. دائمًا، يعرفون إلى أين يذهبون. يركضون في الشوارع تحت يد الرب العظيمة. لكننا لا نؤمن بالرب. اعتاد أبي أن يقول: «*كان يسوع رجلًا مداويًا عظيمًا، ليس أكثر من ذلك*». لذا لم أعرف قط إلى أين أنا ذاهبة. فقط، آتي إلى مكان ما، وهذا المكان أتبع فيه ميليسا.

خرجت ميليسا إلى الردهة، فتبعتها وقلت:

ـ لماذا تخرجين؟ إلى أين أنت ذاهبة؟ ما الذي حدث أمس؟

ذهبت إلى الحمام، وجلست أنا على غطاء المرحاض.

قالت:

ـ أحضرته سونيا إلى المنزل أمس.

فتحت الخزانة، وأخرجت مستحضرات التجميل. رفعت ساقيَّ وضممت ركبتيَّ أسفل قميص النوم. مالت نحو المرآة، ورفعت جفنيها، ورسمت خطًّا أسود على حافتيهما، وفتحت فمها، ولم يكن عليها أن تقول المزيد. أستطيع تخيل الموقف. على الأرجح، وقفت سونيا هناك بحذائها السخيف وهي تمسك أبي وتقول: «*ها نحن هنا!*» واضطُرَّت ميليسا أن تقول: «*شكرًا*». بينما يتهاوى أبي في البيت.

قالت ميليسا:

ـ لقد أوضحتْ كل شيء.

ـ لكن ما الذي حدث؟

ـ تصرف بحماقة. ولستِ بحاجة إلى معرفة التفاصيل.

ثم خرجت إلى الردهة، وارتدت حذاءها ومعطفها، وقالت:

ـ تعالي هنا. هل على ظهر معطفي شعيرات كثيرة؟ ليس من اللائق أن يعلق الشعر بملابسك حين تتقدمين إلى وظيفة.

ـ هل ستتقدمين إلى وظيفة؟!

ـ هذه الوظيفة لن يعلم بها أحد سوى أسرتي.

ثم وضعت وشاحًا أحمر حول رقبتها، وابتسمت لي في المرآة.

ـ سأحصل على هذه الوظيفة. لا بد أنهم يائسون. هذا هو الوقت الذي يحتاجون فيه إلى الناس من أجل العمل.

مالت نحو المرآة، وأغمضت عينيها قليلًا، وتمشت ذهابًا وإيابًا، ثم نظرت إليَّ.

ـ هل أنا جميلة هكذا؟

ـ نعم، لكن شعركِ غير مصفف.

ـ الشعر غير مصفف؟ سيحب هيرمان إيريكسن ذلك بالتأكيد.

بالفعل، أحب هيرمان إيريكسن ذلك، أو ربما أعجبه التجميل أو الوشاح، أو ربما كان يائسًا كما قالت. على أي حال، عادت إلى البيت. كان الوقت مساءً. خلعت حذاءها، وتركت معطفها يسقط على الأرض، ثم دخلت المطبخ.

ـ لقد حصلت على الوظيفة.

جلست إلى الطاولة، وفركت وجهها.

ـ بدأت العمل على الفور. هل يمكنكِ أن تحضري لي بعض الشوفان وجوربًا جافًا؟

أحضرت لها الشوفان وصحنًا وملعقة. وقفت بجوارها مثل نادلة، وسكبت الحليب على الشوفان. رفعت بصرها وقالت:

ـ شكرًا.

تداخلت ألوان التجميل على وجهها. ذهبت لإحضار السكر والجورب. كانت تأكل الشوفان بيد ويدها الأخرى على جبهتها، ثم رفعت بصرها وقالت:

ـ ماذا؟ ما الأمر؟

ـ ألستِ سعيدة؟

ـ أوه، بلى.

وضعت الملعقة على الطاولة.

ـ حصلت على مرتب أقل من أبي، ولكن أحب أن أتسول.

ـ بالتأكيد لم تتسولي.

ـ بل تسولت.

رفعت الطبق وشربت بقية الحليب، وقالت مرة أخرى:

ـ نعم، لقد تسولت.

في ما بعد، استلقيت بجوارها في السرير. كان جسدها مشدودًا. قالت:

ـ هؤلاء الناس يزعجونني.

وضعتُ أصابع قدمي على ساقها.

ـ يقول هؤلاء الناس إنهم يسدون إلينا معروفًا.

التفتت وركلت اللحاف بعيدًا.

ـ ثم يخصمون من راتبي الدفعة المقدمة التي أخذها أبي. المكان مضيء للغاية هنا.

نهضت من السرير، وبدأت في إسدال الستائر. قالت إنها لا تستطيع النوم وأضواء السيارات تلوح على السقف. لكن هذه الستارة أصلًا عالقة، ومع ذلك، ظلت تجذبها حتى انفكت من مكانها بالأعلى وصارت مائلة.

ـ هكذا. هذا جيد.

ثم استلقت، وأردفت:

ـ لا بأس.

وضعت الوسادة تحت رقبتها وأغمضت عينيها، لكنها لم تنم. شعرت بذلك.

ـ يمتلئ رأسي بالأشجار حين أغمض عينيَّ. اللعنة! لقد غسلوا دماغي.

ـ نعم.

ـ لا أحب قولهم إنهم يسدون إلينا معروفًا.

ـ نعم.

في الخارج، نبح الكلب. تأففت ميليسا.

قلت:

ـ لكن أليس صحيحًا أنهم يسدون إلينا معروفًا؟

تأففت مرة أخرى وحسب.

في النهاية، فهمت ماذا يعنون بكلمة «معروف»: أن عليها أن تبدأ العمل في السادسة صباحًا، وتعمل ساعتين قبل المدرسة، وبعد المدرسة، تعود إلى العمل مرة أخرى وتعمل حتى موعد الإغلاق. قال المدير إنه رتب الأمر هكذا من أجلها، لكن ميليسا قالت إن هذا ليس صحيحًا. كل الناس يعرفون أن من الصعب ترتيب الأشجار في الظلام حين تكون مبتلة وباردة، بدلًا من المجيء في العاشرة صباحًا حين تشرق الشمس والأشجار جاهزة في مكانها. لا مفر

من ذلك. لا بد أن يسير الأمر على هذا النحو. يجب أن تكون في العمل في الصباح وفي المساء وفي العطلات الأسبوعية. كان هذا هو «المعروف». والدفعة المقدمة، التي أخذها أبي، خُصِمت من راتبها. وحين يأتي الناس في العاشرة صباحًا، يجب أن يكون كل شيء جاهزًا.

قالت:

ـ ما الهدف من ذلك؟ من سيشتري شجرة كريسماس في العاشرة صباحًا؟ من سيشتري شجرة كريسماس بعد الإفطار ويحملها معه ويُدخِلها إلى مكتبه؟

ـ لا أحد.

ـ على أي حال، غدًا صباحًا، لا بد أن تتدبري أمركِ بنفسكِ؛ لأن عليَّ أن أغادر في السادسة صباحًا لأجهز المكان للعرض.

ـ حسنًا.

بعد برهة، سألت:

ـ لكن ما العرض؟

ـ أشجار. كل شيء في هذا العمل يتعلق بالأشجار.

قال عامل الصيانة في المدرسة:

- لن أنسى أختكِ أبدًا. كانت تسيطر بمفردها على ساحة المدرسة.

قال عامل الصيانة:

- ميليسا، نعم، إنها الشخص الذي سأحب أن آخذه معي إلى الحرب.

حين استيقظت، وجدت أنها غادرت. ذهبتُ إلى المدرسة، ولن نفعل شيئًا سوى صنع زينة الكريسماس. عملت في المجموعة التي تضم موسى وميريل. اخترنا أن نصنع زينة على شكل سلسلة، وحتى هذا لم أحسن عمله. نظر إليَّ موسى وقال: «*ما الذي تفعلينه؟ أنت تلصقينها بالمقلوب!*» ثم انتهى اليوم الدراسي، وعدت إلى البيت، لكنني بقيت واقفة في الردهة. كانت الشقة خاوية ورمادية، وأنا أيضًا أصبحت خاوية ورمادية. لم يعد ثمة أي شيء جميل. فقط، المشجب الذي كانت تملكه جدتي، بلونه البني وأذرعه الملتوية. لم يكن ثمة شيء. وفجأة، لم أستطيع البقاء في مثل هذا المكان، فخرجت مرة أخرى.

توجهت نحو محطة الوقود، وكان ثمة شيء مسكوب على الأرض؛ فقد امتلأ الإسفلت بالماء وألوان قوس قزح. ذهبت إلى المكان الذي يبيع أشجار الكريسماس. كان ثمة رجلان يتكلمان معًا. تحركت ميليسا بسرعة بين الأشجار وتظاهرت بعدم رؤيتي، وكان زي العمل، الذي ترتديه، كبيرًا للغاية وطويلًا إلى درجة أنه غطى قدميها. جلست على صندوق الصحف الأحمر. كانت ميليسا ترفع الشجر من القواعد الخشبية، وتأخذ قياسات كل شجرة بعصا

طويلة، ثم تدفعها نحو ممر لتغليفها في نسيج شبكي. لم تومئ لي على الإطلاق، لكنها، في النهاية، أتت إليَّ. كان الوقت حينها مساءً.

ـ عودي إلى البيت. أشعر بالتوتر لجلوسكِ هنا.

هززت رأسي.

ـ اذهبي الآن. لا يجلب الناس أخواتهم إلى العمل.

لم أردَّ.

ـ إيريكسن مجنون. لا يُسمَح لي حتى بالذهاب إلى الحمام حين يكون هنا.

لكنها لم تنجح في إبعادي من المكان. هززت رأسي فحسب. وواصلت ميليسا العمل. وضعت الوشاح حول عنقها واستمرت في العمل.

كان الجو غائمًا، لكنني تمكنت من رؤيتها؛ لأن مكان البيع مزود بعمود إضاءة. بعد فترة، حل الليل، وغادر إيريكسن. وأخيرًا، انتهت ميليسا أيضًا من العمل، ودخلت المخزن، وخرجت وهي ترتدي المعطف، وطوت لافتة البيع وعلقتها على الجدار، ثم نزعت القابس، وغرق مكان البيع في الظلام. أتت إليَّ. أمسكت يدي، وعدنا إلى البيت معًا. مشت ببطء. وجهها كان شاحبًا، ولم تقل شيئًا.

حين أحضرت لها جوربًا جافًّا، وأكلت بعض الشوفان بالحليب والسكر، ودخلت الحمام، قالت إن هذا العمل مقرف.

ـ يظن الناس أن أشجار الكريسماس جميلة، لكن مجال العمل وقت الكريسماس يغص بجميع أنواع الناس المقرفين. وقفازاي رديئان؛ لأن إبر الصنوبر تخترقهما على الفور.

كنت جالسة على غطاء المرحاض وهي تهز شعرها لتنفض عنه إبر الصنوبر.

تابعت:

ـ لا يعرف الناس إلى أي حد تؤلم إبر الصنوبر. لا يعرفون إلى أي مدى يشعر المرء بالبرد حين يقف في مكانه ويقول: «*نعم. هل تعجبكِ هذه الشجرة يا سيدتي؟ هل هي مناسبة لغرفة معيشتك؟*»

وضعت رأسها تحت الصنبور، وفركت وجهها.

ـ هل تقولين: «*يا سيدتي*»؟

ـ ماذا؟ لا أسمع شيئًا.

ـ هل تقولين: «*يا سيدتي*»؟

أغلقت الصنبور ورفعت بصرها. انتشر السواد حول عينيها، وتساقط الماء من وجنتيها. امتلأ ما تحت إبطيها بكثير من النقط الصغيرة الحمراء. بدت مثل إحدى شخصيات الهالوين.

ـ ليس هذا هو المهم. المهم هو أنني مُستعبَدة.

قالت إنها مُستعبَدة لتومي، وإن تومي مُستعبَد لإيريكسن، وحتى إيريكسن مُستعبَد أيضًا، لكنه لم يفهم ذلك بسبب غبائه. كان مُستعبَدًا للكريسماس وليسوع وللمسيحية، والمسيحية كلها مُستعبَدة للرأسمالية. هذه هي المشكلة، كما قالت ميليسا.

قلت:

ـ المشكلة في ماذا؟

ـ في كل شيء. في كل شيء بلا استثناء.

في اليوم التالي، ذهبت إلى هناك مرة أخرى. كان الطقس أشد برودة. السماء بلون أزرق فاتح، والدخان المتصاعد من فمي يشبه القطن. جلست على صندوق الصحف، وأسندت رأسي إلى جدار محطة الوقود. رفعت ساقيَّ إلى أعلى، وأرحت جبهتي على ركبتيَّ، ثم نمت على بطني وحركت ساقيَّ في الهواء. حينها، أمسك شخص حذائي، فالتفتُّ لأجد رجلًا يقف بجواري.

ـ مرحبًا. هل أنتِ أختها الصغيرة؟

كان يرتدي زيًّا واقيًا من البرد من قطعة واحدة وقفازين أسودين ضخمين. اعتدلت وجلست.

قال تومي وهو يمد يده بالقفاز:

ـ تعالي. يمكنكِ مرافقتنا.

ـ لا، لا يمكنني ذلك.

ـ بل يمكنكِ؛ لقد غادر إيريكسن.

ـ لكن ميليسا لا تريد ذلك.

ـ القرار لا يعود إليها.

أمسك يدي بالقفاز وقال:

ـ تعالي. لدينا اجتماع.

وسحبني بين الأشجار.

صاح تومي:

ـ ميليسا، تعالي إلى هنا.

كانت ميليسا جالسة على الأرض ترتب الأشجار. رفعت بصرها، وكانت خائفة.

ـ هدئي من روعكِ. أنا الذي أتيت بها.

توجه إلى المخزن وفتح الباب.

ـ اجلسي. تناولي كعك الزنجبيل.

كان الجو شديد الحرارة بالداخل. على الأرض، جهاز راديو متسخ بفعل الطين، تتصاعد منه أصوات أطفال يغنون أغنية «السماء متألقة ومجيدة». جلست على كرسي، وجلس تومي على الكرسي المقابل. ظلت ميليسا واقفة عند الباب، وظل الأطفال يغنون «يرفعنا من الأرض إلى السماء .. يرفعنا من الأرض إلى السماء».

ـ ميليسا، لا يمكن أن تجلس أختكِ على ذلك الصندوق طوال اليوم في درجة حرارة 5-.

ـ أعرف. لقد أخبرتها بذلك.

نظر إليَّ تومي وقال:

ـ حسنًا. ما مشكلتكِ؟

بدأت ميليسا تنتزع إبر الصنوبر من قفازيها، وفتح تومي علبة التبغ وشكّله بيديه.

ـ ما مشكلتكِ؟

ـ أريد فقط أن أبقى هنا.

ـ لا بأس في ذلك، لكنني أتساءل، هل تريدين العمل هنا أيتها الصغيرة؟

رفعت ميليسا بصرها، وشكلها شبيه بحيوان بشعرها المبعثر تحت القبعة.

ـ أعمل؟!

ـ نعم، هل تريدين أن تعملي هنا، تعملي عندنا؟

نظرت إلى ميليسا، لكنها كانت تنظر إلى تومي.

قلت:

ـ نعم؟

قال تومي:

ـ اسمعا. هل سمعتما عن أخذ نسبة من الأرباح؟

قال تومي إن هذا الموضوع سهل الفهم؛ لأنه يأخذ نسبة من أرباح ما يسميه الناس «الإكليل». قال: «*تمامًا مثل الأشجار، الناس العاديون يسمونها شجرة الكريسماس، يسميها إيريكسن شجيرة؛ لذا فهذه نسبة من أرباح كل شيء أخضر نستخدمه لزينة الكريسماس*». يحتاج تومي إلى هذه النسبة. قال: «*لأن زوجتي حبلى، فأنا بحاجة إلى مزيد من المال الآن*». أغمضت ميليسا عينيها واستندت إلى إطار الباب.

ـ هل تعرفان كم تُكلِّف طاولة تغيير حفاضات الأطفال؟ تعرفان بالطبع لماذا لا يرغب المرء في شراء شيء كهذا، مستعمل من قبل، وليس جديدًا.

قالت ميليسا:

ـ ما قصدك من هذا؟

ـ أقصد أنني أريد منكما أن تنضما إليَّ في العمل، وسأقتسم نسبة الأرباح معكما.

وابتسم.

ردت ميليسا:

ـ لكن لماذا تقتسمها معنا بينما بإمكانك الحصول عليها كلها لنفسك؟

ـ لأن لديَّ خطة.

ـ خطة من أي نوع؟

ـ هي.

وأشار إليَّ.

ـ هي خطتي... اسمعا. يشتري الناس الأشجار، أليس كذلك؟ لكن ما الذي يشترونه حقًّا؟

قلت:

ـ شجيرات.

ـ لا بد أن تفكري. ما الذي يحتاج إليه زبائننا؟ الشجيرات وأشياء خضراء للتزيين، ويحتاجون إلى ما هو أكثر من ذلك.

أومأت، ثم هززت رأسي.

ـ يا فتيات، نحن نبيع حلمًا. ما يشتريه زبائننا هو أجواء الكريسماس. وهل تعرفان أشد ما يريدونه من أجواء الكريسماس؟

قالت ميليسا:

ـ هل هذا أحجية أم ماذا؟

لكن تومي لم ينظر إليها، بل نظر إليَّ. عيناه بلون أزرق فاتح.

قال:

ـ يريدون أن يشعروا أنهم أناس طيبون.

حكى كيف يقول الناس إن رزق المتسولين في النرويج يقل في موسم الكريسماس؛ لأن الإنسان العصري كفَّ عن شراء الهدايا وتقديم المساعدات في هذا الموسم، وأصبح يشتري بدلًا من ذلك الماعز في إفريقيا ليطعموا فقراء إفريقيا. وقال إن إفريقيا مليئة بالماعز الآن. ولذلك؛ تهافت الناس على الوقوف في طابور أمام بيت الطعام الذي يساعد الفقراء طوال شهر ديسمبر، لكن لم يكن الفقراء هم الذين يقفون في هذا الطابور، بل كان الأغنياء هم الذين ينتظرون بلهفة للعثور على أي شخص لمساعدته.

قال تومي:

ـ أنا أعني ذلك حقًّا، لم يعد ثمة أحد يريد الاحتفال مع عائلته. يريد الجميع الاحتفال مع الفقراء ومدمني المخدرات.

واصلت امتصاص كعك الزنجبيل على لساني فأصبح لينًا ورطبًا ولذيذًا.

تابع تومي:

ـ هل تعرفان ما نوع القصص التي يحب الناس قراءتها في الكريسماس؟ «بائعة الكبريت». وبالطبع تعرفان عمَّ تدور أحداثها؟

أخرجت الكعك من فمي وقلت:

ـ عن شجرة كريسماس.

ـ عن فتاة جائعة تقف خارج نافذة تتطلع إلى بطة مطهية.

وخبط علبة التبغ على الطاولة، وأومأ نحو ميليسا وهو يتابع:

- اللعنة! هل هذا ما يسميه الناس «أجواء الكريسماس»؟

- نعم.

- إذن، هل تعلمان من الذي يحب الناس أن يساعدوه حقًّا في الكريسماس؟ من الأشخاص الذين يريدون مساعدتهم أكثر من غيرهم؟

- لا.

- الأطفال النحيلون.

قالت ميليسا:

- نحيلون؟!

- نعم.

وربَّت على شعري قائلًا:

- وها هي هنا.

صحت:

- اشترِ مني إكليلًا، سيذهب ربحه إلى الأطفال الفقراء!

في اليوم التالي، طلب مني الوقوف على الرصيف ومعي إكليل على ذراعي ومحاولة دعوة الزبائن إلى الدخول وشراء أشجار الكريسماس. كان عليَّ فقط أن أبدو نحيلة وطيبة وفقيرة، وسيعطينا تومي نصف الأرباح. قالت ميليسا إن الناس ليسوا أغبياء إلى هذا الحد، لكنها كانت مخطئة؛ لأن الناس ظلوا يتوقفون أمامي طوال الوقت. توقفوا وابتسموا وأمالوا رؤوسهم ثم أخرجوا محافظهم، منهم نساء مسنات وشابات ووالد ستيلا. كانوا يرتدون القفازات ويحملون الحقائب، ويتصاعد بخار أنفاسهم المتكثف من شدة برودة الطقس. قالوا: «*هذا إكليل من طراز أصيل*»، «*ما هذه الفتاة الصغيرة الجميلة؟*» كنت أبتسم وأومئ: «*صندوق المحاسبة هناك*». حل الظلام، وجاء موسى راكضًا ومرتديًا سترة جميلة من الجينز محلاة بالفراء حول الرقبة. توقف أمامي.

- أنتِ هنا؟! ماذا تفعلين هنا؟

- نعم، حصلت على عمل.

ـ أنتِ محظوظة دائمًا. هل تبيعين من أجل الأطفال الفقراء؟

ـ نعم، أو نوعًا ما.

ـ أنتِ طيبة دائمًا.

ابتسم، وقال:

ـ أراكِ في المدرسة.

وابتسمت، وأكمل هو ركضه، وأنا أعلم ما الذي سيقوله في الفصل. «*هل تصدقون أن رونيا تعمل؟*»

واصلت البيع. لكن، في النهاية، شعرت بالألم في ساقيَّ. ثم صاحت ميليسا أن عليَّ التوجه إلى الداخل.

قالت:

ـ أنتِ عبقرية.

أخرجتْ دفتري من الحقيبة، وجلست تدون الحسابات.

ـ 200، 400، 600. يا رونيا، الأمر رهيب! أوشكت الزينة الخضراء على النفاد.

دخل تومي وأغلق الباب خلفه.

ـ يا فتيات.

قالت ميليسا:

ـ يا تومي، رونيا عبقرية.

كرر:

ـ يا فتيات.

وألقى الحقيبة التي كان يعلقها حول خصره على الطاولة.

ـ هذا جيد جدًّا. كل شيء جيد جدًّا. لكن موضوع الأطفال الفقراء، هل يجوز ذلك؟

قالت ميليسا:

ـ كانت هذه هي الفكرة من الأصل.

ـ أعرف، ولا بأس في الكذب قليلًا، لكنها تصيح بصوت عالٍ إلى درجة أن منطقة تويَّان كلها تسمع كذبتها.

لم نردَّ. تابع تومي:

ـ نحن لا نبيع من أجل الأطفال الفقراء. نحن نبيع من أجل إيريكسن. وهيرمان إيريكسن وزوجته هما اللذان يقودان سيارة كابورليه مكشوفة في منطقة هادالان، والأمر حقًّا شديد الغباء.

قالت ميليسا:

ـ وقصدك من هذا؟

ـ قصدي أنهما ليسا فقيرين.

قلت:

ـ لكن ماذا عنا؟

ـ ماذا عنا؟!

لم أجبه، وأعطيته بعض الوقت ليفكر أيضًا. نظر إليَّ بعينيه الزرقاوين الصافيتين.

قلت:

ـ ستصبح أبًا.

قالت ميليسا:

ـ هل تعتقد أن طفلك سيكون غنيًّا؟

أضفت:

ـ ألا تريد أن تشتري طاولة مستعملة لتغيير الحفاضات؟

نظر تومي إليَّ ثم إلى ميليسا ثم إليَّ مرة أخرى.

ـ أنتما على حق.

أخذت واحدة من الكعك، ورسمت ميليسا شيئًا على علامة الجمع في الدفتر، وفي النهاية، أومأ تومي.

ـ لنستمر. لكن هل يمكنكِ الصياح بصوت منخفض قليلًا؟

ذلك اليوم، جنى كل منا 200 كرونة. في اليوم التالي، جنى كل منا 300 كرونة. وأشارت ميليسا إلى الأرقام في الدفتر وقالت: «*هذا ثمن شجرة الكريسماس الخاصة بكِ*». في اليوم الثالث، اشترى تومي طاولة تغيير الحفاضات من متجر بيبي شوب، وقالت له زوجته كم هو طيب!

كل يوم، بعد اليوم الدراسي، أركض إلى محطة الوقود، وأقف خلف مضخة البنزين حتى يغادر إيريكسن، فأركض إلى العمل، وأعمل وأعمل. هذا أفضل شيء يمكن للمرء أن يفعله.

حين يعمل المرء، لا يُضطَر إلى التفكير في الأمور ولا الشعور بها ولا السؤال عنها. كأنني لا أسمع الناس الموجودين في غرفة المعيشة مع أنني أسمعهم بالفعل. كأنني لا أرى أبي مع أنني أراه بالفعل. لذا حين يقولون: «*ابتسمي قليلًا يا رونيا*»، أبتسم فحسب، وحين يقول أبي: «*لم أسمِّكِ رونيا كي تنشئي في منطقة تويّان. لا ينبغي أن يعيش الأطفال في مكان لا يرون فيه النجوم في السماء*»، أقول: «*لا بأس يا أبي*». ثم أمشي نحو الردهة، وآخذ سترتي لأن لديَّ عمل. أحببت أن أبتسم للزبائن، وأحببت محافظهم، وأحببت أن أقول: «*هل اشتريتم كل ما يلزمكم لزينة الكريسماس؟*» على باب المدرسة، كان عامل الصيانة يربت على رأسي ويقول: «*لماذا تبتسمين؟ لم تعتادي من قبل الوقوف هناك والابتسام*». لكن تحتم عليَّ أن أبتسم؛ لأنني كنت أفكر في الإكليل. كنت أنادي: «*إكليل .. إكليل!*» وحين أشعر بالتعب، تشير لي ميليسا كي أدخل وأجلس على السلم، ويذهب تومي لإحضار مشروب الكاكاو من محطة الوقود، ويقول: «*أنتِ آلة نقود صغيرة جميلة، وعلينا أن نحافظ على آلة نقودنا*».

في المساء، حين نغلق المتجر ونجلس في المخزن ونحصي النقود، يحكي تومي عن باعة أشجار كريسماس آخرين في أماكن أخرى. كانوا أسوأ منا بكثير؛ يحتالون على النساء المسنات لأنهن لا يستطعن رؤية الأرقام التي تدل على قياسات الشجرة، ويبيعون أشجارًا رديئة. وقال تومي إن حربًا دارت في منطقة نيتادال، تعارك فيها مكانان للبيع في التسعينيات.

قال:

ـ هل تعرفان ما حدث هناك؟

هززت رأسي، ورصت ميليسا العملات بعضها فوق بعضها كأنها برج.

تابع تومي:

ـ ذات ليلة، حمل أحد البائعين طفاية الحريق.

ـ لماذا؟

ـ لماذا في رأيكِ؟ حين جاء البائع الآخر إلى العمل، كان المكان كله عائمًا في رغوة إطفاء الحريق. أُتلِفت مئات الأشجار. لكن هل تعرفان ما الذي فعله البائع الآخر في الليلة التالية؟

ـ ماذا؟

ـ في الليلة التالية، توجه نحو المنشار الكهربائي.

رفع التُّرمس، وتركت ميليسا النقود ونظرت إليه.

قال:

ـ هل تريد أي منكما ما تبقى من مشروب الجلُجْ؟

قالت ميليسا:

ـ ماذا فعل البائع الآخر؟

ـ ماذا فعل في رأيكِ؟

قلت:

ـ قطَّع كل الأشجار.

أومأ تومي ببطء، وسكب بقية مشروب الجلُجْ في كوبي.

ـ أتعرفان من الذي كان يعمل في منطقة نيتادال في التسعينيات؟

ـ لا.

ـ سأخبركما. كان رجلًا يُدعى هيرمان إيريكسن.

ذات يوم مشمس، كنت أجلس على السلم، ووقفت ميليسا بجوار بعض الأشجار لإزالة الشبكة التي تغطيها. جرى الأمر بسهولة؛ لأن الأشجار كانت قد جفت من الماء وصارت لينة. ذهب تومي لشراء مشروب الكاكاو. غرد طائر على قمة إحدى الأشجار. أغمضت عينيَّ. ذكَّرني هذا الصوت بالربيع. كانت الشمس تشع على جفنيَّ، وأصبح كل شيء أحمر اللون. أسندت رأسي إلى الباب، وكانت أفكاري على وشك أن تصبح أحلامًا. صار صوت التغريد كأنما يأتي من حلم.

قال صوت:

ـ أنتِ.

فتحت عينيَّ. كان إيريكسن يقف أمامي.

وقف إيريكسن موليًا ظهره لي. كان ظهره صغير الحجم وعريضًا. نظر إلى ميليسا، وأشار نحوي بإبهامه من فوق كتفه.

قال:

ـ لماذا تجلس هنا؟

ـ ماذا؟

ـ هذه الفتاة.

أردت أن أقف وأركض. في الحقيقة، أردت أن أختفي. يا إلهي، لا أريد أن أكون رونيا، أريد أن أموت. لا أريد أن أبقى على الأرض، أريد فقط أن أطير في الفضاء. يا إلهي العزيز، فقط اجعل كل شيء يختفي على الفور.

قالت ميليسا:

ـ أليس هذا سلمًا؟ أتمانع إذا جلس الناس على السلم؟

خرج تومي من محطة الوقود. لم يكن قد رآنا بعد، وقد أمسك بكوب من مشروب الكاكاو بيد وكيس به كعكة باليد الأخرى. ثم رأى إيريكسن، وتوقف عن أرجحة الكيس. بدأ يسرع خطواته، وجاء للوقوف بجوار ميليسا وهو يعض شفته.

قال إيريكسن:

- تومي، يقول الناس إن ثمة طفلة تعمل هنا.

- حقًّا؟! يقول الناس كثيرًا من الأمور الغريبة.

حط الطائر على الأرض وأمال رأسه.

قال إيريكسن:

- بالتأكيد لن يقول كل هؤلاء الناس أمورًا غريبة، وهم يقولون إن إيريكسن يوظف طفلة للعمل لديه. يأتون إليَّ ويقولون: *«لقد اشترينا هذا الإكليل من الفتاة الحلوة الصغيرة»*. فأقول لهم: *«هذا ليس صحيحًا. بالتأكيد اشتريتم من مكان آخر»*. فيقولون: *«اشترينا من المكان المجاور لمحطة الوقود، أليس هذا هو المكان الذي تبيع فيه؟»*

- حقًّا؟!

نظر نحو ميليسا وقال:

- هذا ما يحدث عندما توظف فتاة في السادسة عشرة من عمرها.

قالت ميليسا مبتسمة:

- نعم، أعتذر. اعتاد الناس على الاعتقاد أنني في الثانية عشرة من عمري.

نظر إيريكسن إليها، فقالت:

- أقصد في الثالثة عشرة.

قال إيريكسن:

ـ اسمعا، أنتما اللذان تديران هذا المكان، وأنا لا أريد أن أراها هنا مرة أخرى. نحن لا نوظف أطفالًا هنا في «أشجار إيريكسن».

قال تومي:

ـ حسنًا.

التفت إيريكسن نحوي، فنهضت.

ـ هل سمعتِ ما قلته؟ لا أريد رؤيتكِ هنا مرة أخرى.

قلت:

ـ حسنًا.

ـ هذا ليس مركزًا للمتضررين ولا للاجئين.

ـ نعم.

ـ إذن ستذهبين إلى بيتكِ الآن؟

ـ نعم، سأذهب إلى بيتي الآن.

عدت إلى البيت. لم يعد لديَّ عمل بعد الآن. صعدت من سلم الحريق. فتحت الباب، ورأيت آرونسون وافقًا وسط الردهة أمام شقتنا، وكان الباب مفتوحًا، وسمعت ما قاله.

ـ أرى أن الأمور لا تسير على ما يُرام هنا.

وقفت في مكاني. شعرت كأنني أصبحت مسطحة تمامًا، كأنني أصبحت دمية من ورق لم يعد أحد يمسك بها، وسمعت صوت أبي يقول:

ـ وما أدراك بذلك؟ ألست محاسبًا مسنًّا؟

ثم تعالت أصوات ضوضاء من ردهة شقتنا. ربما سقط المشجب.

قال آرونسون:

ـ أف!

بعد برهة، هز رأسه، وقال:

ـ على الأقل أنت تعرف ماذا أقصد بذلك.

أغلق الباب، والتفت، فاكتشف وجودي.

ـ مرحبًا.

ـ مرحبًا.

ـ هل أنتِ عائدة إلى البيت؟

أومأت.

ـ هل تودين المجيء إلى مسكني؟

ـ لا أزور الغرباء.

ـ حسنًا.

لم أتقدم كثيرًا حتى وقف في وسط الردهة بشعره الأبيض.

ـ أين أختكِ؟

ـ في العمل.

ـ هل عليكِ أن تعودي إلى البيت؟

لم أتحمل نظرته إليَّ على هذا النحو ولا أن يقول أمورًا كهذه أو يفكر بها.

ـ لا، فقط كنت سأترك حقيبتي هنا.

مشيت في الردهة، وتركت حقيبتي عند باب الشقة. لم أنظر إلى آرونسون، فقط وصلت إلى سلم الحريق وفتحته واختفيت. لكنني لم أختفِ، لم أتمكن من ذلك. ظللت واقفة أنظر إلى الباب الأحمر الخاص بسلم الحريق، ولم أعرف إلى أين أذهب.

ثم جاءت تلك الأيام. لم أتحمل وجود الناس الجالسين على الأريكة. لم أتحمل أن تقول سونيا: «*ما هذا؟ هل هذا أنتِ يا رونيا؟*» ثم تكمل قولها إنها أيضًا لديها ابنة. لا أتحمل سماع أن ابنتها تعمل الآن سكرتيرة وليس لديها وقت لسونيا، ولا أتحمل صوت أبي وهو يقيء. في اليوم التالي، أفتقر إلى التركيز. ذهبت إلى المدرسة لأحاول، لكن لم يكن ثمة شيء يستدعي التركيز؛ لأننا لم نفعل شيئًا سوى استعدادات الكريسماس وأغاني الاحتفال بالقديسة لوسيا. وقال موسى: «*من الأفضل أن تشغلوا أغنية الفئران المضحكة*». لكنني لم أضحك. ثم أعطونا ورقة كُتِب عليها موعد بدء الاحتفال بالقديسة لوسيا. وطوال الوقت، كنا نغني أغنية «كم الأرض جميلة»، وطوال الوقت، يتكلمون عن إعداد ملابس القديسة لوسيا، وأزعجني هذا. في فترة الراحة القصيرة، قال لي موسى: «*لم أعد أراكِ في مكان بيع الأشجار*». وأزعجني هذا أيضًا. وفي فترة الراحة الطويلة، ظللت واقفة عند باب المدرسة. كان الطقس باردًا، لكن الثلج لم يسقط. وسألني عامل الصيانة إذا كنت أريد قطعة بوريك، لكنني لم أكن جائعة. ظللت أفتت البوريك للسنجاب، لكن حتى السنجاب كان يبدو حزينًا، وهذا ليس غريبًا؛ فليس جيدًا أن يكون السنجاب

الوحيد في منطقة تويَّان. وذات يوم، كنت أقف على هذا النحو، فوجدت أبي قادمًا.

الإسفلت والشمس. لا شيء إلا الإسفلت والشمس. لم تتجاوز الساعة الثانية عشرة. كان أبي يترنح في مشيته. وفجأة، شعرت بحرارة شديدة، ثم ببرودة مثلجة. ثم رآني. ابتسم ورفع يده، وكان عليَّ أن أرفع يدي أيضًا. لكن يمكن أن يرانا الجميع عبر بوابة المدرسة لأنها مكونة من قضبان. تمنيت أن يقطع أحد رأسي، أن يحدث فيضان وحرائق وأعاصير. ألا يمكن أن تغرق الشوارع في الماء أو أن يحترق كل شيء؟ حينها، لن يتمكن من التفكير في ستارجيت، ولن يتمكن أحد من التفكير فينا؛ لأن الجميع سيركضون عبر تويَّان للابتعاد عن الأشجار المشتعلة والأشياء المتساقطة. ألا يمكن أن يركض الجميع على هذا النحو حاملين أطفالهم على ظهورهم؟

لكن الشمس كانت مشرقة وتضيء الرصيف، وكان الأطفال يلعبون لعبة الحمام ويصيحون: «على كل صغار الحمام أن تعود إلى البيت!» دخن عامل الصيانة سيجارة ونفث دخانها تجاه السماء، ووقف أبي في وسط الشارع يبتسم ويُلوِّح لي، ثم واصل المشي، لكن مشيته كانت غريبة، كأنه قد بال على نفسه. ظللت أحبس أنفاسي؛ فما الذي يمكنني قوله؟ ماذا سيقول عامل الصيانة؟ ماذا سيقول الآخرون؟ ماذا سيقول أبي الذي يستمر بالتلويح لي ولم يكفَّ عن التلويح لي. ثم حدث شيء خلفه. في البداية، لم أستطع رؤيته، ثم رأيته.

كان كلب الرجل المتشبه بالنساء. قفز على ساق أبي، ثم ظهر الرجل المتشبه بالنساء. وقفا أمام خطوط عبور المشاة، وقال شيئًا ما لأبي. وكان أبي يشير بذراعه نحوي، فهز الرجل المتشبه بالنساء رأسه. وضع ذراعه خلف ظهر أبي، وجعله يلتفت عائدًا من حيث أتى.

مشى ثلاثتهم معًا. دفع الرجل أبي بيد، وأمسك رسن الكلب بيد أخرى، ومشوا تجاه ناصية المركز التجاري، واختفوا.

التفتُّ إلى فناء المدرسة. كان الطلاب يدورون حول لعبة التسلق ويركضون ويضحكون، وظللت مستندة إلى عمود المدخل كأنني أنهيت للتو حصة ألعاب. كان قلبي يدق في أذنيَّ.

أطفأ عامل الصيانة سيجارته في العمود المجاور له، وقال:

ـ ليس عليكِ أن تخجلي من أي شيء.

أعاد بقية السيجارة إلى العلبة.

قلت:

ـ اممم!

ـ ملِك الكحول سيد قاسٍ للغاية.

لكنني لم أتحمل أن يرى الناس ذلك ويقولوا أمورًا عنه. لم أتحمل. لم أتحمل أن يفكروا في ذلك ويتذكروا أمورًا ما أو يعرفوا بشأنها.

ـ لا شأن لكِ بهذا. كل الناس يفهمون الأمر.

ـ لا أفهم عن أي شيء تتحدث، حتى إنك لا تجيد التحدث بالنرويجية كما ينبغي.

نظر عامل الصيانة أمامه، وأخذ وقت الراحة يمر ويمر، وأفكاري تتشابك في رأسي. لم يقل شيئًا آخر. وضع يديه في جيبيه فحسب. لكن كل هذه الأمور تتجمع بداخلي وتتعاظم وتتعاظم. دق جرس المدرسة، وبدأت أتحرك من المدخل. حينها، وضع عامل الصيانة يده على رأسي، فتوقفت.

قال:

ـ ماكارونيا[1].

دق على رأسي كما يدق المرء على باب.

ـ أليس لديكِ طاقية صوفية في البيت؟ بدأ الطقس يصبح أكثر برودة.

---

(1) اسم التدليل لـ«رونيا» دلالة على أنها لذيذة مثل المعكرونة.

لم أتمكن من النوم تلك الليلة. سمعت أبي في الحمام، ثم وقف في مدخل الباب وقال: «*سأخرج قليلًا*». غادر، لكنه لم يُحكِم إغلاق الباب. سمعت صوت خطواته على سلم الحريق. نهضت، وأغلقت قفل الباب. تمنيت لو أنني كنت عمياء وصماء. عدت إلى السرير مرة أخرى. الشيء الوحيد، الذي يمكننا فعله، هو أن نغمض أعيننا. وأغمضت عينيَّ، لكن الأفكار ظلت هناك. تمنيت لو كنت غبية وبلا عقل. بعد فترة طويلة، سمعت ميليسا تفتح الباب. سمعتها وهي تلقي الحقيبة على الأرض، وسمعت صوت الماء من الدُّش. ثم عادت إلى الغرفة وألقت المنشفة على الأرض.

قلت:

- مرحبًا.

- هل أنتِ مستيقظة؟

ردت وهي تجلس على طرف سريري وشعرها يقطر الماء على اللحاف:

- ما الأمر؟

- ارتكبت كثيرًا من الأمور الغبية.

- يرتكب الأطفال أمورًا غبية طوال الوقت. لا بأس بذلك.

ـ والقديسة لوسيا.

ـ أوه، نعم. هل الاحتفال غدًا؟

كانت عيناها تلمعان وجميلتين للغاية. نظرتْ إلى النافذة وكانت الستارة مائلة.

قالت:

ـ لا تفكري في ذلك. سأتدبر الأمر. حين تستيقظين، سيكون كل شيء على ما يُرام.

ـ لكن كيف؟

ـ أعرف أن لديَّ الملابس اللازمة. إنها في العلية، أو في الخزانة. سأتدبر الأمر غدًا صباحًا.

ـ أشكركِ.

ـ بالتأكيد تريدينني أن أحضر.

قالت ذلك وربتت على شعري. أتذكر حين شاركتْ في احتفال القديسة لوسيا، ومر طابور المشاركين في الاحتفال عبر الردهة وأنا وأبي نقف في الخارج. كان الظلام مخيمًا. ومع أنها لم تكن في أول الطابور، كان الجميع يعرفون أنها التي تقوم بدور القديسة لوسيا. كانت الوحيدة التي غنت غناءً صحيحًا، والآخرون كانوا يتبعون صوتها فحسب. حين مرت أمامنا، غمزت لي بعينها، ثم اختفوا أسفل السلم، والتفتت والدة مارون إلى أبي وقالت: «*هل تشعر بالفخر؟ لديك كل الأسباب التي تدعوك إلى ذلك*». أجاب أبي: «*أشكركِ. لكنها لم ترث موهبتها مني*».

تابعت ميليسا:

ـ امممم. هل تريدينني أن أحضر؟

ـ لا، لستِ مضطرة إلى ذلك.

ـ يمكنني أن أطلب اليوم عطلة.

ـ لا، لا تفعلي ذلك.

ـ يمكنني أن أقول إنني مريضة.

وعبثت بشعري بين أصابعها مرة أخرى.

ـ شعركِ جميل للغاية.

ـ لا، لن تجني مالًا.

ـ حسنًا، لكن على الأقل سيكون لديكِ زي جاهز. هل تودين النوم على ذراعي؟

نمت على ذراعها، وشعرت بالنعاس يتسلل إليَّ. تذكرت حين كنا في مخيم بيفيرين الصيفي، وكان ذلك صيفًا خاليًا من الكحول بالنسبة إلى أبي؛ فلم يشرب إلا الشاي أمام خيمتنا، وتعرفت ميليسا على فتاة، واعتدنا الجلوس على سور أمام المتجر. جلسنا ومضغنا اللبان، وكانتا تسمحان لي بالذهاب معهما دائمًا. كان اللبان مغلفًا بورق وردي اللون، وداخل الغلاف، ملصقات صغيرة عليها أشكال كلاب. هبطت الشمس من فوق قمم الأشجار. وجه صديقة أختي ممتلئ بالنمش، وكانت تطرح أسئلة شديدة الذكاء. قالت ذات مرة: «*ما الروح حقًا؟ يقول الناس إن الفضاء لا نهاية له، كيف يكون أي شيء بلا نهاية؟*»

جعلتنا نفكر في كل الأمور الممكنة؛ بعيدًا في الكون وفي أعماق عقولنا. قالت: «*أتعرفان ما مشكلتنا نحن البشر؟ نحن أذكياء بما يكفي لنسأل، لكننا أغبياء بما يكفي كي لا نجيب*». أعطيتاني كل ملصقاتهما. كانتا تشتريان اللبان من أجل مذاقه، أما أنا فاشتريه من أجل ملصقات الكلاب؛ لأنني مولعة بالكلاب. فاح اللبان برائحة الفراولة، وسألت صديقة أختي: «*إذا كان بإمكانكما الاختيار بين أن تظلا مستيقظتين فقط أو نائمتين فقط، فماذا تختاران؟*» أجابت ميليسا: «*أن أنام*». قالت صديقتها: «*هل تعنين ذلك حقًّا؟*» ردت: «*بالطبع. إذا كنت سأبتعد عن كل تلك المشكلات فبالطبع سأختار ذلك*».

ـ حبيبتي، استيقظي.

فتحت عينيَّ، وكان الظلام مخيمًا. وقفت أمامي، وأمسكت بين يديها شيئًا أبيض.

ـ أخبرتكِ أنني سأتدبر الأمر. ها هو ذا.

اعتدلت جالسة. كان الطقس باردًا، وقلبي يدق بسرعة.

ـ هل هذا زي القديسة لوسيا؟

ـ إنه مجعد قليلًا. اذهبي إلى آرونسون واسأليه إذا كان بإمكانه كيُّ الزي من أجلكِ.

ـ أذهب إلى آرونسون؟!

ـ نعم. إذا كان شخص لديه مكواة فهو هذا الشخص.

ـ هل يمكنكِ أن تطرقي أنتِ بابه؟

ـ يا رونيا، لديَّ حصة ألعاب رياضية، ولا بد أن أذهب لإعداد الأشجار، ويبدو أنني على وشك الرسوب في هذه المادة. من فضلكِ، تعرفين كيف تطرقين الباب.

ارتديت ملابسي سريعًا في الظلام. أخذت الزي، ومررت بغرفة المعيشة التي كان أبي نائمًا فيها على الأريكة. فاحت رائحة كريهة. عبرت الردهة، وطرقت باب آرونسون، وفتح الباب. شعرت أن قامته

بلغ ارتفاعها عدة كيلومترات، وكان عليَّ أن أُرجِع عنقي إلى الخلف كي أنظر إليه. كان يمسك كوب قهوة في يده.

ـ معذرة، هل تسمح بكيٍّ زي القديسة لوسيا الخاص بي؟

ـ كي؟! الآن؟!

ـ نعم.

ـ الساعة السادسة صباحًا!

ـ نعم. اليوم احتفال القديسة لوسيا.

ناولته الزي، وكنت أرتجف بردًا لأن الردهة شديدة البرودة ومضيئة وصامتة. كان شعره مصففًا، ويبدو مستيقظًا منذ فترة.

ـ أترى؟ إنه يحتاج إلى كي.

تناول مني الزي وقال:

ـ نعم، يبدو أنه يحتاج إلى كي. ادخلي وسنرى.

دخلت إلى ردهته، وسمعت ميليسا وهي تهبط سلم الحريق ركضًا. نظرت إلى أعلى لأن آرونسون كان هو من كتب ملاحظة «*رجاء استخدام السلم العادي*»، لكن لم يبدُ عليه شيء، ولم يقل شيئًا، واكتفى بغلق الباب خلفي.

ـ تعالي معي إلى المطبخ.

وصلنا إلى غرفة المعيشة المفروشة بالموكيت، وعبرنا باب المطبخ.

ـ تفضلي بالجلوس.

جلست. لم يكن لديَّ ما أقوله. على النافذة، ستائر مزودة بطيات عرضية كثيرة، وفي الخارج، أضاء المكان بفعل عمود النور. رأيت ميليسا تركض بجوار المركز التجاري، تتأرجح حقيبتها صعودًا وهبوطًا على ظهرها. فتح آرونسون خزانة طويلة، وأخرج منها منضدة الكي. ملأ المكواة بالماء. بدا رأس الصنبور على شكل وردة. بدأ الكي بمقدمة المكواة. كوى كل جزء بدقة.

قال:

ـ ما دام المرء سيكوي فلا بد أن يكوي بدقة.

أومأت، فأردف:

- هذه هي طريقة الكي الصحيحة.

أومأت مرة أخرى. عبق المكان برائحة حلوة.

وبعد برهة، قال:

- عليكِ أن تكوني في المدرسة في الساعة الثامنة والنصف، أليس كذلك؟

- بلى. هذا موعد البروفة النهائية ثم العرض.

- متى موعد العرض؟

- في الساعة الرابعة، ويمكنك الحضور.

- أوه، شكرًا.

ضبط زي القديسة لوسيا وأمسكه إلى أعلى.

- هل تناولتِ إفطاركِ؟

- نعم.

كان يقف خلف الزي فلم أرَ وجهه.

تابعت:

- لكن منذ وقت طويل.

- إذن فربما الوقت مناسب لتناول شطيرة. ستجدين كل ما تحتاجين إليه في الدرج هناك.

هكذا، مر الصباح، بغرابة شديدة. جلست إلى طاولة رمادية لامعة، وأكلت شطائر الجبن والسجق.

ـ كلي قدر ما تشائين.

كان الخبز مقطعًا وجاهزًا للأكل، وأحببت هذا كثيرًا. ظل يكوي ببطء شديد. أصبحت السماء فوق المركز التجاري وردية اللون، وأكلت شطيرة بعد شطيرة؛ لأنه حين يقول شخص ما: «*كلي قدر ما تشائين*» فسآكل قدر ما أشاء. نظرت إلى الساعة المعلقة فوق الباب، وكان عقرب الثواني يتحرك ويتحرك.

قال آرونسون:

ـ لا تقلقي بسبب الوقت، أنا رجل دقيق.

نظرت إلى خارج النافذة بدلًا من ذلك.

ـ إذن، عن أي شيء يدور احتفال القديسة لوسيا؟

حينها، بدأت في الكلام كثيرًا. بالتأكيد يرجع السبب في ذلك إلى السجق الذي أكلته. وحكيت أن كعك القديسة لوسيا كان مجانيًّا، على شكل قطط، وأسماه موسى «قطط موسى»، وحكيت أيضًا أن عامل الصيانة اشترى كشافًا، وأنه سيسلط الضوء علينا واحدًا تلو الآخر ونحن نغني أغنية «كم الأرض جميلة».

قلت:

ـ هذه أغنيتي المفضلة.

ـ نعم، إنها أغنية تقليدية.

حين استعددت للمغادرة، أعطاني شماعة ملابس.

قال:

ـ لا معنى للكي ثم تجعيد الزي في الحقيبة.

ظل واقفًا في الردهة ممسكًا بالزي الخاص بي، ودخلت إلى الشقة لأُحضِر حقيبتي. أغلقت الباب، وأعطاني آرونسون الزي، ومشيت في الردهة وأنا أحمله كأنه شعار أو درع. كان منيرًا بلونه الأبيض. حملته عاليًا. وحين ارتديته في غرفة الملابس قبل البروفة، شعرت أنه ما زال دافئًا.

حل المساء، والعالم مجرد عالم، به أرصفة وألعاب تسلُّق، وأولياء أمر حضروا ومعهم كعك الكريسماس في علب. لم يفدني أن أبدل القميص وأرتدي زي لوسيا، ولم يفدني أن تمر المعلمة بيننا وترش النثار اللامع على رؤوسنا وتقول: «*الآن تبدين جميلة*».

الأمل وحده هو الذي يفسد كل شيء. لكنني لم أملك إلا الاحتفاظ بهذا الأمل الغبي في رأسي. ربطت ستيلا شريطًا أحمر حول بطنها، ووقفتُ خلف ستارة المسرح، وسمعت أولياء الأمر في الصالة. سمعت رُضَّعًا يبكون، ومقاعد تتحرك من مكان إلى آخر. مالت ستيلا نحوي وقالت: «*أسمع الآن التوأمين. التوأمان هما اللذان يبكيان*».

جذب عامل الصيانة ستارة المسرح، وظللت واقفة هناك أحدق في الجمهور، من وجه إلى وجه، لكن لم يكن أحدهم أبي. كنت أعرف ذلك، لكنني لم أكف عن البحث، وظل الأمل يراودني؛ لأن المرء قد يأتي متأخرًا، قد يصحو فجأة ويرى الملاحظة على باب الثلاجة ويأتي ركضًا. ظللت واقفة أحملق، ورأيت أيادي كثيرة تُلوِّح، وأضواء كاميرات كثيرة تومض. وأخيرًا، حوَّل عامل الصيانة

الأضاءة كلها إلى المسرح، ولم يعد باستطاعتي رؤية الجمهور. غنينا أغنية «يأتي الليل بالظلمة إلى البيوت والإسطبلات». وقد غنيت، غنيت بالفعل، لكن حنجرتي كانت تؤلمني. غنيت مثل نجمة شمسية صغيرة. ثم وقف معلم الموسيقى أمامنا وقال: «*سنستمع الآن إلى الأغنية التي يعدُّها الناس أفضل أغنية كريسماس. وهي أغنية: كم الأرض جميلة*».

وقف عامل الصيانة خلف ستارة المسرح، ووضع يده على قلبه، وغمز لي بعينه. أحيانًا، لا يفهم الكثير. أحيانًا، لا تبدو هذه الأغنية لطيفة لشخص فقد عمله. وكان عليَّ أن أفكر في أبي حين قال إن العالم قد دُمِّر. ولم أوافقه الرأي؛ لأنني أومن أن هذه الأغنية صادقة للغاية. أذكر ذات مرة أننا نزلنا من القارب على الجزيرة الخطأ. وجدنا أنفسنا في مكان ممتلئ بالزهور الزرقاء. كما أتذكر مخيم بيفيرين الصيفي؛ هناك، بوسع المرء أن يقف على الشاطئ، وينظر إلى الشمس وهي تغيب، ويصطبغ البحر كله باللون الوردي. أيضًا أتذكر كوخ الغابة. كلما أغمضت عينيَّ، أتذكره. تقول ميليسا إنني أتخيل كثيرًا. لكن هذا ليس خيالًا إذا كان موجودًا حقًّا، وحدث بالفعل، وحدث في منطقة سولتونه في فصل الصيف كله، وكان أبي حينها يتعافى.

عمل أبي في المخبز طوال الصيف، وأصبح غنيًّا. ثم حل الشتاء، وركبنا الحافلة بعيدًا جدًّا عن المنزل، وتوغلنا عميقًا في الغابة. وفي أعماقها، الكوخ الذي استأجره. ظل أبي يزيح الثلج من أمام مدخل

الكوخ كي نتمكن من الدخول. وحين فتح الباب صباحًا، كان كل شيء يلمع بالخارج، وصاح: «*يا أهلًا بطائر القرقف! يا أهلًا بالثلج! يا أهلًا بالسماء!*» رأيت أن طائر القرقف في غاية الجمال، كما أحببت رؤية المدن والعشب أمام البناية وهو ممتلئ بزهور الطرخشقون الصفراء قبل أن يجز آرونسون العشب.

وفجأة، سطعت الإضاءة. سُلِّط الضوء على شخص تلو الآخر، وبدأ الناس يتهامسون في الصالة ويتلفظون بأسماء أطفالهم، لكن همسهم كان عاليًا. سُلِّط الضوء على مارون، وسمعت صوت والدته، ثم سُلِّط الضوء على موسى، ثم على ستيلا، ثم سُلِّط الضوء عليَّ أنا.

لا أحد يرى ملاحظة على باب الثلاجة ثم يكف عن شرب الخمر فجأة، وكما لا يحتاج ربط الحذاء إلى وقتًا طويلًا للغاية، لذلك، لم يهمس أحد باسم «رونيا»، لم يهمس أحد ولا نادى ولا استخدم فلاش الكاميرا. أعمتني الإضاءة، وجعلتني عاجزة عن نسيان تبسُّمه لي تحت الماء في الصيف، وكيف رسم على ظهري بقشة حين نمت على صخرة، كما جعلتني الإضاءة عاجزة عن نسيان كوخ الغابة، وكيف أغلق باب الكوخ وقال: «*لن يخرج أحد هذه الليلة*». أخيرًا، أخيرًا، انحسر الضوء عن وجهي، لكن، حينها، بدأ عزف الموسيقى مرة أخرى، وحوَّل عامل الصيانة الضوء إلى الجمهور. حينها، اضطُرِرت إلى الرؤية مرة أخرى. لم أرغب في ذلك، لكن هذا هو حال عينيَّ: من المستحيل أن أمنعهما عن الرؤية. تنقلتا من وجه إلى آخر. رأيت جميع الوجوه. رأيت أبًا يرفع آلة تصويره، وأمًّا تبكي وتجفف وجهها، ورجلًا مسنًّا معتدلًا في جلسته ومرتديًا قميصًا وربطة عنق. أغمض الرجل المسن عينيه حين سُلِّط عليه الضوء، لكن هذا الرجل المسن لم يكن يبكي ولا يُلوِّح ولا يبتسم. هذا الرجل المسن كان آرونسون.

سُلِّط الضوء علينا أخيرًا، وبدأنا ننشد الأغنية الأخيرة. شعرت أن جسدي أصبح خفيفًا، وغنيت بأقصى ما أملك من قوة «فليحل السلام على الأرض»، ولم أعد أشعر بآلام في حنجرتي. غنيت بصوت عالٍ «افرح أيها الإنسان»، وحدقت فيَّ ستيلا، لكنني لم أهتم، وانتهت الأغنية. بدأ الناس يصفقون، ولوَّحت. نظر آرونسون إليَّ مباشرة وأومأ. رفعت يدي الأخرى ولوَّحت بيديَّ الاثنتين، فأومأ مرة أخرى.

قالت ستيلا:

ـ لمن تُلوِّحين؟

ـ آرونسون.

ـ من هذا؟

ـ إنه جدي.

ـ هل تنادين جدكِ باسم العائلة؟

ـ نعم، هذا معتاد في عائلتنا.

نزلت من على خشبة المسرح. كدت أشم رائحة القهوة. كان للناس مكان يذهبون إليه، وأنا أيضًا. رفرف زي القديسة لوسيا

حولي وأنا أمشي. وقف آرونسون بجوار المقاعد، طويلًا مثل برج، يستطيع أي شخص أن يراه من أي مكان.

قال:

ـ لقد أحسنتِ.

ـ شكرًا لك.

ـ «الزمن سيمر»، هذا صحيح جدًّا كما يقولون في الأغنية.

تحرك الأطفال بعشوائية حولنا، وسقطت المقاعد، وتكلم الناس ونحن واقفان هناك. لم يقل أكثر من ذلك. شعرت بالحرج من النظر إلى وجهه، فنظرت إلى بطنه.

قلت:

ـ النجوم على ربطة العنق جميلة.

ـ شكرًا لكِ.

ـ هل هذه ربطة العنق الخاصة بالكريسماس؟

اقتربت ستيلا وقالت:

ـ معذرة.

التفتُّ إليها وكانت واقفة هناك. أمسكت بيدها كعكة كريسماس على شكل قطة. وقف أصدقاؤها خلفها، كانوا يفعلون ذلك دائمًا، لا أحتاج إلى التعرف عليهم.

قالت:

ـ معذرة. هل صحيح أنك جد رونيا؟

خفض آرونسون بصره إليَّ وفتح فمه. أغمضت عينيَّ. فكرت في الأيام الدراسية القادمة. كنت في مكان ستيلا ذات يوم وأعرف كل ما لديها. تعيش في منزل مستقل، يضم شرفتين وثلاث قطط، واسمها معناه «النجمة»، وتردد ذلك طوال الوقت، وطوال الوقت، محاطة بأصدقائها. تصطحبها أمها من المدرسة في الساعة الثانية كل يوم، وتصطحب معها التوأمين النائمين في السيارة ومع كل منهما لعبته المحشوة على شكل أرنب، ويرغب جميع الأطفال في النظر إلى ما في داخل السيارة، فلماذا لا تدعني أحصل على جد بينما لديها كل ذلك؟ على أي حال، لماذا كذبت؟ تنهدت وفكرت. أرجوك أرجوك أرجوك. وحاولت أن أختلس النظر وأنا أغمض عينيَّ، لكن آرونسون لم يعد ينظر إليَّ، كان يضبط ربطة عنقه.

قال:

ـ لماذا تسألين؟

ـ لأن رونيا قالت ذلك، ومن الغريب أننا لم نسمع عنك شيئًا من قبل.

ـ آه، فهمت. والآن تريدين معرفة الحقيقة؟

ـ نعم، من فضلك.

وابتسمت.

ـ قد يكون ثمة سبب لرغبتها في عدم إطلاعكِ على كل شيء.

ـ اممم.

ـ ربما تفضل حفيدتي أن تتكلم مع شخص آخر.

فتحت ستيلا فمها، وشعرت إلى أي مدى أحب آرونسون؛ أحب قميصه وربطة عنقه وطول قامته، حتى الأوراق الصغيرة التي كان يعلقها دائمًا، وكل المرات التي طرق فيها باب شقتنا. تمنيت لو أنه كان ناظر المدرسة، أو الرب، أو رئيس اتحاد مُلَّاك بنايتنا.

ـ هل لديكِ أسئلة أخرى أم انتهينا؟

ظلت ستيلا واقفة وفمها مفتوح، وخفضت يدها الممسكة بالكعكة.

قلت:

ـ أعتقد أننا انتهينا.

أومأ آرونسون وهو يقول:

ـ تعالي يا حفيدتي. أحتاج إلى كوب من القهوة.

توجهنا إلى طاولة الكعك لأننا انتهينا. وعبق العالم كله برائحة القهوة. وفي وسط الناس، توقف آرونسون وقال لي:

ـ انتظري لحظة.

وضع يده على شعري، وربَّت عليه من أعلى.

ـ الآن يبدو أفضل. كان شريط شعركِ مائلًا.

كانت هذه بداية الأيام السعيدة؛ ففي اليوم التالي، اضطُرَّ إيريكسن إلى السفر إلى مدينة موس؛ عليه أن يساعد أخاه في البيع هناك، وسيقضي أسبوعًا كاملًا. واتصل تومي بميليسا، وقال إن بإمكاني العودة إلى العمل، والجلوس في المخزن وتدفئة نفسي وأداء واجباتي المنزلية، والبيع بقدر ما أريد. قال تومي: «*أعرف ما الذي يعنيه أن أكون أبًا أنا أيضًا*». عُلِّق الإكليل في ركن المكان، وأُضيئت الكشافات، وكسا الثلج الأشجار. كان هذا حال الأيام السعيدة. أنادي لبيع الإكليل من أجل الأطفال الفقراء، وحين أشعر بالبرد، أجلس في المخزن ومعي ملف أوراق واجباتي المنزلية التي أؤديها على منضدة تخييم. كنت أعشق منضدة التخييم. ناقش واجبي المنزلي اليوم كلًّا من القيصر كاليجولا والقيصر نيرون وشخص آخر. كرههم الناس جميعًا. وأحببت رؤية أناس يكرهون أناسًا آخرين. في الراديو، تكلموا عن عاصفة هائلة تُسمَّى «جودرون» آتية في الطريق، وتقترب أكثر فأكثر من جهة الشمال، وأنا أحب العواصف، وأحب مشروب الكريسماس، وأحب النقود. بعد الظهيرة، نحصل على استراحة، ويهب تومي ليشتري لنا كعكات الدونات، ونجلس في المخزن لتناولها وهي ما زالت ساخنة تلمع بفعل الزيت.

قال تومي:

ـ هل أحكي لكما عن زوجتي حين أصبحت حبلى؟

ردت ميليسا:

ـ من الأفضل ألا تفعل.

ـ لا أقصد ذلك. اسمعي. تعرفان ألفرِد؟

أعاد مقعد التخييم إلى الخلف، وأسند عنقه إلى الحائط.

قلت:

ـ نعم، نعرفه.

ـ حقًّا؟

ـ نعم، نوعًا ما.

رتبت ميليسا الأوراق النقدية من فئة المئة كرونة على المنضدة في شكل مروحة.

أكمل تومي:

ـ على أي حال، إنه رجل غريب. في شهر يونيو، كنا ننظف الغابة في منطقة آناباك، وجلسنا على جذع شجرة لنرتاح قليلًا، ثم قال: «*مبارك يا صديقي، ستكون أبًا*». لكنني لم أرغب في أن أصبح أبًا، فقلت له: «*ما الذي تقوله أيها الرجل؟!*» لم يجبني، وأعاد واقي الأذنين الضخم، وعاد إلى تقطيع الأشجار بالمنشار الكهربائي. لكن أتعرفان؟ حين عدت إلى البيت، اكتشفت أن امرأتي حبلى.

ـ حقًّا؟

ـ كانت حبلى.

وأعاد الكرسي إلى الأمام.

ـ لقد أجرت اختبار حمل منزليًا.

قالت ميليسا:

ـ لا داعي لمعرفة كل هذه المعلومات.

قلت:

ـ لكن كيف عرف ألفرِد؟

هز تومي كتفيه.

ـ لا أعرف، لكنه هو الذي أخبرني، ويمكن أن يكون من هؤلاء الناس الذين يرون المستقبل.

قالت ميليسا:

ـ نعم، وهو مثل الملاك جبريل، قال: «*يا تومي، يا ابن ديفيد، ستكون أبًا*».

لكن تومي ابتسم وربَّت على شعرها. ابتعدت ميليسا وقالت إن يديه ملوثتان بالدهون، فبدلًا من ذلك قرصها في وجنتها وقال:

ـ تظنين نفسك شديدة الذكاء يا ميليسا؛ لأن ثمة أمورًا كثيرة بين السماء والأرض تتجاوز الأرباح وزينة الكريسماس.

حينها، رأيت آرونسون بين الأشجار.

ألقيت كعكة الدونات على الطاولة وركضت، وانزلقت على الثلج ووصلت إليه. تصاعد بخار أبيض من فمه.

صحت:

ـ آرونسون! هل تريد شجرة ممتازة أم عادية؟

ـ ما هذا؟ أنتِ هنا أيضًا؟

ـ لا بد أن أكون هنا؛ لأنني أعمل هنا. هل تبحث عن شجرة؟

ـ في الحقيقة، أنا أبحث عن إكليل.

ـ أوه، هل تعرف أنها تُسمَّى زينة كريسماس؟

ثم تذكرت أنني بائعة، وقلت:

ـ هل تود سماع بعض التوصيات؟

أمسكت مرفقه، وقدته إلى مكان العرض. أومأ آرونسون وشكر، وتفحص المعروض من الإكليل. أحضرت ورقة وأريته الأسعار؛ كي لا يظن أنني أتحايل عليه.

قلت:

ـ إكليل مصنوع من أوراق الطحالب، ألا ترى أنه إكليل تقليدي؟

اختار آرونسون الإكليلين اللذين أوصيت بهما، أحدهما له والآخر لأخته، ثم غمغم قائلًا:

ـ نعم، أحتاج أيضًا إلى واحد للمقبرة.

ـ هل مات أحد؟

ـ كثيرون، لكن هذا للسيدة آرونسون.

ـ يا إلهي!

ـ تمامًا.

كان ظهره يؤلمه. جميع المسنين يعانون ألم الظهر. مشى متخشبًا في أثناء خروجه من المكان، يمسك إكليلًا في كل يد، وإكليل المقبرة تحت ذراعه. بدا كأنه يفتقر إلى الاتزان.

صحت:

ـ انتظر. هذا شديد الخطورة.

ركضت مسرعة لأحضر دلو الحصى.

قلت:

ـ في أي طريق ستمشي؟

ـ سأمشي هناك.

رفعت الدلو، وظللت ألقي الحصى أمام قدميه. بين خطوة وخطوة، أنظر إلى أعلى وأبتسم، وبين خطوة وخطوة، كان هو أيضًا يبتسم. وهكذا، واصلنا المشي.

ـ تمهل.

كان الحصى يخرفش على الأرض.

ـ لا داعي للاستعجال.

وواصلت إلقاء الحصى حتى الرصيف. عندها، أومأ وقال:

ـ يا لها من خدمة ممتازة.

كانت هذه هي الأيام السعيدة؛ فعندما عدت مرة أخرى، وجدت تومي يتحدث في هاتفه المحمول على مكبر الصوت. سمعت إيريكسن يقول إن في موس متاعب؛ فحتى الآن لم تصل الأشجار الممتازة؛ لذلك كان عليه أن يبحث في منطقة إوستفول كلها عن الأشجار الممتازة. قال إيريكسن: «*من المحتمل أن أبقى هنا*». فأجاب تومي: «*أوف! أوف!*» والتقى كفه بكفي إلى أعلى. ثم أغلق الخط، وسألني إذا كان يمكننا أن نفعل شيئًا فكر فيه منذ زمن.

قال تومي بابتسامة:

ـ التوصيل إلى المنازل.

صحت:

- توصيل شجرة الكريسماس إلى المنازل؟... توصيل شجرة الكريسماس إلى المنازل، وتخفيضات الكريسماس!

قالت ميليسا إن عليَّ ارتداء سترتي، لكنني لست بحاجة إلى ذلك. وقفت مرتدية كنزة بغطاء رأس، وشعرت بحرارة شديدة وبتصاعد البخار الأبيض من فمي، ودق قلبي بشدة. كان تومي محقًّا؛ فالإنسان العصري يعشق التوصيل إلى المنازل. الإنسان العصري كسول ومدلل، ولا يستطيع حمل الشجرة إلى المنزل، ولا يريد إبر الصنوبر في سيارته. لكننا لسنا أغبياء، لا يجوز أن يقول أحد ذلك. ابتسمت وأملت رأسي بينما تتكلم ميليسا مع إنسان عصري وتقول: «*لدينا أيضًا توصيل إلى المنازل، هل ترغب في هذه الخدمة؟*» ظل تومي يضع أشجارًا في سيارته ويوصلها إلى الناس، وجنينا كثيرًا من النقود، واشترينا كثيرًا من الطعام. وفي المدرسة، كان السنجاب سعيدًا للغاية؛ لأن لديَّ كعك ماريلاند في علبة الطعام، وظل يقفز حول قدميَّ مبتسمًا.

كانت ميليسا سعيدة أيضًا. لم ترغب في قول ذلك، لكنني رأيت سعادتها. في المساء، وهي واقفة في المطبخ تقطع الجبن، قالت:

ـ آه، ظهري .. يداي. اللعنة! لديَّ إبر صنوبر في ملابسي الداخلية!

ثم جلست إلى الطاولة وأضافت مسحوق الكاكاو إلى الحليب.

ـ أحب شعور الخداع. أحببته طوال حياتي.

ظلت واقفة نصف ساعة في أثناء الاستحمام وقالت:

ـ الدفء، هذا الدفء هدية من الرب للبشر.

قال عامل الصيانة:

ـ هل تقفين هنا؟

كان هذا آخر يوم في الدراسة. وقفت أمام عمود مدخل المدرسة أفكر في النقود. فكرت في هدية الكريسماس التي سأشتريها لميليسا. قفازات دافئة جدًّا للشتاء. شعرت بفرحة غامرة في أعماقي. لكن، مع ذلك، بقيت واقفة كما أفعل طوال الوقت. وأجبته الإجابة التي أقولها دائمًا:

ـ نعم.

ـ تعرفين أن هذا ممنوع.

ـ لكن وُضِعت القواعد لتُنتهَك.

أشعل سيجارته، وظللنا نتكلم عن المسموح والممنوع، ثم كففنا عن الكلام. كان الظلام مخيمًا في ذلك اليوم، والشوارع هادئة للغاية، وربما كان هذا هدوء ما قبل عاصفة جودرون. أصبحت شعلة السيجارة شديدة الاحمرار في هذا الظلام الغريب. ظللنا نأكل البوريك، وجاء السنجاب وجلس بجوار قدميَّ.

قال عامل الصيانة:

ـ رونيا، إجازة الكريسماس قادمة.

أومأت.

قال:

ـ ماذا ستفعلين؟

ـ أعمل قليلًا.

ـ أوه، هل قابلتِ ألفرِد إذن؟

هززت رأسي. أدار وجهه، وظل يسعل لفترة طويلة، وحين التفت، كانت عيناه لامعتين على نحو غريب. لم أعرف ماذا أقول.

ـ يبدو السنجاب في حالة جيدة الآن.

ثم دق جرس المدرسة. وضع عامل الصيانة يده على رأسي ودق عليه كما يدق على الباب.

ـ مع السلامة يا رونيا.

ـ ماذا؟ لماذا تقولها على هذا النحو؟

ـ لماذا؟! لأنني الرجل الأشد كآبة في البلقان.

في اليوم السابق للكريسماس، غادرت ميليسا قبل أن أستيقظ. كان أبي جالسًا على الأريكة يهز رأسه، لكنني شعرت كأني كنت أرتدي ملابس واقية ضده. قلت فقط: «*مع السلامة يا أبي*». ومررت من أمامه وأنا أتنفس من فمي فقط. خرجت إلى الردهة وارتديت الحذاء. وفي الردهة، عدت إلى التنفس على نحو عادي. وهناك، فاحت رائحة لحم مقلي. حينها، لم أفكر في أي شيء على الإطلاق. ذهبت مباشرة وطرقت الباب. فتح آرونسون ونظر إليَّ.

ـ صباح الخير.

ـ صباح الخير. ثمة رائحة لحم مقلي.

ـ نعم؟

ـ فقط خفت أن تكون قد نسيت المقلاة على النار.

ـ نسيت المقلاة على النار؟

ـ أو نسيت قِدرًا على النار. لا أريدك أن تحترق في الداخل.

ـ فهمت.

ـ أنت تعرف أن كبار السن ينسون كثيرًا، وأحيانًا، يحترقون داخل بيوتهم.

ـ هذا صحيح.

ظللنا واقفين وهو يرتدي قميصًا أبيض مكويًا بعناية حول الأزرار.

قلت:

ـ لقد كويت القميص بطريقة جميلة جدًا.

ـ حقًا؟ شكرًا.

ـ لكن، هل تقلي اللحم حقًا؟

ـ نعم. هل أعدُّ مزيدًا من الشطائر؟

هكذا كان الحال. يصبح الإنسان سعيدًا في بعض الأيام، يصبح سعيدًا ودافئًا وشبعانًا، وحينها، يشعر بعدم التركيز. لا يحدث هذا في الحكايات، لكنه يحدث في الواقع. جنينا الآلاف من توصيل الأشجار إلى المنازل، وقال تومي إنه سيشتري ثوبًا لزوجته كي ترتديه بعد أن تلد الطفل، ثوبًا أحمر اللون. كان هذا في اليوم السابق للكريسماس، حين كنت شبعانة ودافئة وغنية. جلست أمام السلم في المخزن أنظر إلى كل شيء. وحل الليل، وبدأت السيارات تلمع، وبدأت ميليسا في جمع الأشجار. أومأ تومي وابتسم وقال: «*إذن، سيحل الكريسماس هذا العام أيضًا*». حمل الأشجار إلى السيارة. وفي كل مرة فعل ذلك، تناولت دفتري ورسمت خطًا. بعد ذلك، شعرت بالبرودة في قدميَّ، فتوجهت إلى الداخل وأكلت كعك الزنجبيل. كان ملف أوراق واجباتي المنزلية موضوعًا على المنضدة، ورسمت شاربًا للقيصر كاليجولا. فتحت الدفتر، وطالعت الحسابات. في ناحية، قُيِّدت نقود التوصيل إلى المنازل، وفي الناحية الأخرى، نقود الإكليل. رسمت قلوبًا حول الأرقام، ثم فُتح الباب.

قال إيريكسن:

ـ هكذا إذن؟!

لقد كان في مدينة موس، لكن ربما لم يكن هناك؛ لأنه يقف الآن عند الباب. ربما لم يذهب قط إلى موس، أو ربما اتصل به شخص ما وقال له: «*لقد سمعت أنكم بدأتم خدمة التوصيل إلى المنازل*». أو ربما لديه جواسيس في أوسلو. ربما جاءت سيدة أو اثنتان ووقفتا أمام ميليسا وقالتا: «*كنت أريد شجرة جبلية*». لكنهما رأتا بطرفي عينيهما السيارة والأشجار التي تُوضَع فيها، أو ربما سمع شخص ميليسا وهي تقول: «*هل ترغب في التوصيل إلى المنزل؟ حسنًا. تومي، كم تأخذ لقاء التوصيل للمنزل؟*» حينها، ألقى إيريكسن نفسه في السيارة وقاد كالمجنون من مدينة موس، وأوقف سيارته المكشوفة الغبية في أي مكان، وتسلل إلى مكان البيع مثل الثعلب. والآن، يقف عند الباب يُخرِج رأسه متلفتًا ويصيح:

ـ تومي! ميليسا!

خفضت بصري إلى المنضدة، لكنني سمعتهما قادمين. أغلق إيريكسن الباب خلفهما، وأصبح المكان ضيقًا للغاية.

قال إيريكسن:

ـ هكذا إذن؟ اشرحا لي ما يحدث.

قلت:

ـ أنا أؤدي واجباتي المنزلية.

وأشرت إلى ملف الواجبات.

ـ واجبات؟ لقد بقي يومان على الكريسماس.

ـ واجبات إضافية.

ـ لا أصدق هذا.

نظر إلى ميليسا وهي تصر على أسنانها وتحرك أصابعها بحركة تعلمتها من جدتنا. قالت جدتنا: «*في أي موقف، لا بد أن تعدي إلى عشرة. هذه الحركة مفيدة للجميع، خاصة أنتِ*».

قال إيريكسن:

ـ لا يهمني ذلك. لماذا تجلس هذه الفتاة في المخزن كل يوم لتؤدي واجباتها المنزلية؟

حينها، أدت ميليسا الحركة الثانية التي تعلمتها من أبي: أن تبتعد عن الشخص الذي تشعر تجاهه بالغضب. اعتاد أبي أن يقول: «*ستقابلان الحمقى دائمًا، وحينها، يجب أن تحافظا على مسافة آمنة*». لكنها لم تستطع أن تفعل ذلك في مكان مغلق، فقط، اصطدمت بالملابس المعلقة على الحائط.

قال تومي:

ـ إنها لا تأتي كل يوم. اليوم كان استثناءً.

نظر إيريكسن إليه.

تابع تومي:

ـ كانت متعبة قليلًا اليوم وبحاجة إلى تناول الأدوية، وتحتاج إلى من يساعدها في الواجبات.

ـ لكنني لم أوجه حديثي إليك.

حينها، أدت ميليسا الحركة التي تعلمتها من عامل الصيانة: أغمضت عينيها. اعتاد عامل الصيانة على قول: «*ثمة أشياء ليس علينا رؤيتها*». عرف هذا وهو في الحرب. أغمضت ميليسا عينيها، لكنها كانت ترتجف. وكانت هذه حركة تعرفها.

قال إيريكسن:

ـ لقد سئمت من رؤية هذه الطفلة في كل مكان.

حينها، فتحت ميليسا عينيها، ورفعت رأسها، وتوجهت إليه:

ـ هذه الطفلة أختي.

ـ أنا لم أوظف أختكِ. سنها صغيرة للغاية.

ـ وهي معي هنا. المكان الذي أُوجَد فيه ستُوجَد فيه.

ـ لقد نسيتِ شيئًا.

ووضع إصبعيه في عروتي الحزام ثم تابع:

ـ أنتِ هنا على سبيل المجاملة. لقد أعطيتكِ هذه الوظيفة خدمة لك.

ـ حقًّا؟ لكن حين تكون أختي الصغيرة متعبة، وتأتي إلى هنا لتأخذ الدواء وتؤدي بعض الواجبات وتتعلم قليلًا عن ...

مدت ذراعها، ورفعت يدها بملف الواجبات، وتابعت:

ـ ... تتعلم عن القيصر نيرون. في هذه الحالة، لن تقدم لي الخدمة؟ هل انتهت المجاملة؟

لم يجب إيريكسن، فتابعت:

ـ أسألك إذا كان لديك دواء باراسيت في صندوق الإسعافات.

وألقت ملف الواجبات على المنضدة، وقالت:

ـ أم أنك لا تعطي دواء باراسيت للصغار؟

ـ باراسيت؟ هذا لا يتعلق بدواء باراسيت.

ـ ربما بالنسبة إليك. لكن لأنك لم تعاني من قبل من الصداع حين كنت طفلًا، فحينها، تتعلق الحياة كلها بدواء باراسيت.

حينها، ساد الصمت، وظل تومي يعبث في حقيبة النقود حول خصره.

قال إيريكسن:

ـ صداع أو غير ذلك. هذا المكان ليس مستشفى.

قال تومي:

ـ بالطبع، ما حدث اليوم أمر استثنائي.

ـ حسنًا.

ظل تومي ممسكًا بحقيبة النقود حول خصره وهو يحركها بشدة إلى درجة أن السحَّاب كان يصدر صوتًا.

في النهاية، أخذ إيريكسن نفسًا عميقًا، وقال:

ـ إذا رأيتها مرة أخرى فسأتصل بشخص ما.

قلت:

ـ ستتصل بمن؟

نظر الجميع نحوي. لم يجدر بي أن أقول ذلك. لم يبدُ أنني أعاني من صداع الأطفال.

ابتسم إيريكسن وقال:

ـ يمكن للمرء أن يتصل بكثير من الأشخاص. الأهم أن يكون ثمة شخص مهتم.

لكن أسوأ شيء في الكون وجود شخص مهتم. هذا ما عرفته طوال حياتي. لأنك، حينها، ستُضطَر إلى البكاء طويلًا في المنطقة المطلة على البحر المشهورة بصيد الكابوريا. أتذكر أسوأ صيف قضيته في حياتي، حين كان أبي في مصحة علاج الإدمان في سولتونه، وكان عليَّ أنا وميليسا البقاء في مكان آخر، وهو مركز حماية الأطفال الذي يُدعى «لوفاتان»، ومعناها «وردة الأسد»، وكان من المستحيل أن أنام في وجود عوارض خشبية في السقف، ومن المستحيل أن نلعب الغميضة على ذلك العشب. اضطُرِرت إلى حبس دموعي طوال الوقت، واشتقت إلى أبي بشدة كأنني أعاني التهابًا رئويًّا في صدري. حين كنا نصطاد الكابوريا، كنت أظل جالسة على أبعد صخرة كي لا يرى أحد دموعي، وكي لا يراني أحد أيضًا. صاحوا وهللوا للكابوريا التي اصطادوها فحسب. لم أرغب في حمل واحدة منها. جلسوا لالتهام بلح البحر وأنا أبكي وأنظر إليهم، حتى مشى الشخص المسمى كيفين على الصخور ووضع يده على كتفي، وقال:

*«تعالي معي إلى الداخل لتشربي بعض العصير. لقد اصطدنا ما يكفي من الكابوريا لهذا اليوم».*

دفعنا إيريكسن إلى الخارج. لم يعد ثمة شيء لقوله. خيم الظلام، وتصاعد صوت في الهواء. ربما كان صوت العاصفة جودرون. كان على ميليسا وتومي مواصلة العمل؛ لأن على الرصيف أشجارًا ممتازة لا بد من إدخالها.

قال إيريكسن:

ـ الأمر بسيط للغاية: ستواصلان العمل ما دام ثمة زبائن. من الآن فصاعدًا، سأغلق المخزن عند مغادرتي.

وضع تومي مفاتيحه في يد إيريكسن.

فتحت باب الشقة. كانت السترة الجلدية معلقة على المشجب. دخلت غرفة المعيشة ووجدت أبي نائمًا على الأرض.

ـ أبي!

كان راقدًا هناك بجوار الحائط، راقدًا على ظهره، في المكان المفترض لوضع شجرة الكريسماس. فجأة، فكرت أن بإمكاني أن أركله، بإمكاني أن أضغط بقدمي على وجهه، لكنني بدأت أرتجف.

ـ لماذا ترقد هنا؟

فتح عينيه وأغمضهما مرة أخرى. ذرعت الغرفة ذهابًا وإيابًا.

ـ أبي! لماذا ترقد هنا في كل هذا التراب؟

لكنه لم يعد واعيًا. ارتجفت مرة أخرى. ملأني شيء أسود من أسفل إلى أعلى، وشعرت به يخرج من فمي.

ـ لماذا لا تشتري أكياسًا للمكنسة الكهربائية؟

اقتربت أكثر، وقلت:

ـ وكيف سأشتري أكياس المكنسة وأنا لا أعرف طرازها ولا أعرف حتى من أين أشتريها؟

تصاعد صوتي في أثناء كلامي.

ـ ولماذا لا يمكنك حتى فتح النوافذ كي تتبدد هذه الرائحة الكريهة؟ أنت تجعل المكان كريه الرائحة.

ظل أبي راقدًا هناك، لكن الكلمات اندفعت من فمي كأنها ضفادع، وبدا الأمر شديد الغرابة والتعقيد. لم يحدث ذلك من قبل.

ـ وهذه الشقة البشعة هنا، التي ليس بها سوى المشجب ليزين المكان. وهذه السترة الجلدية التي تفوح براحة قذرة. ربما تبولتَ عليها أيضًا. لماذا لا يمكنك حتى أن ترى أين تتبول؟

توجهت نحوه ووقفت بجوار ذراعه.

ـ أبي! أتعرف أن بإمكاني أن ألقي شيئًا ثقيلًا على رأسك الآن؟

فكرت في المقلاة، لكن، حينها، كان عليَّ تذكر وقوفه هناك وهو يعد البيض واللحم المقدد ويقول: «*يا ابنتيَّ، هل تسامحاني؟*» وحينها، كان عليَّ تذكر طاولة المطبخ، حيث لعبنا لعبة كازينو، وكان دائمًا يغششني. حينها، فهمت كل شيء. فهمت كل شيء، لكن لم يكن ثمة شيء لفعله. خرجت إلى الردهة، ورفعت السترة الجلدية، وألقيتها على الأرض. رفعتها مرة أخرى واحتضنتها، واستنشقت الرائحة التي جعلتني على وشك التقيؤ. لم ينجح الأمر. لا شيء ينجح. سالت دموعي حتى عنقي. صدرت أصوات غريبة مني. علَّقت السترة على المشجب مرة أخرى. عدت إليه، وجلست على الأرض، ووضعت جبهتي على ذراعه، وقلت:

ـ أنا آسفة يا أبي. هل تسامحني؟

لكنه كان نائمًا. وبكيت، وابتل ذراعه. فاح الذراع برائحة أبي، وبكيت، وأصدرت أصواتًا غريبة حتى أُرهَقت تمامًا، ثم ذهبت إلى الغرفة لأنام.

هذه الليلة، أصابني المرض. ظلت الأفكار تتردد في ذهني. في البداية، تصورت أنها أفكار عادية، ثم فهمت أنني مصابة بالحمى. كنت مستلقية في سكون تام. شاهدت صورًا كثيرة في ذهني؛ صورًا لطائر القرقف والكابوريا والسنجاب. كان الجو باردًا ومظلمًا، واتخذت النجوم شكل سيارة. جذبت اللحاف، ونظرت إلى السقف، وتساءلت عن معنى كل الأشياء.

قالت ميليسا:

ـ ما الذي أصابكِ؟

جاء الصباح وشعرها منسدل فوقي.

قالت:

ـ لا بد أن تمكثي في البيت اليوم.

فاحت يدها برائحة الصنوبر، ووضعتْها على جبهتي.

قلت:

ـ لا.

ـ نعم.

لم أستطع الرد.

قالت:

ـ لا بد أنكِ أُصِبتِ بالبرد. فقط امكثي هنا كي تتحسني.

خيم الظلام بالخارج، وأنا وحدي. لكن ما الذي أصابني؟ هل هو صداع الأطفال أم ماذا؟ هل يتحقق الكلام الذي نتفوه به؟ لأن الصداع أصابني الآن. جاء مثل الماء، وأخذ الماء يتصاعد في رأسي. اعتدلت جالسة، وتمايلت إلى الأمام، لكن تجمع كل شيء في جبهتي. ارتج رأسي. والآن، عرفت ما حدث: إنه العقاب. هذا هو العقاب؛ لأنني فكرت في المقلاة، ومن المفترض أن تكرم أباك وأمك وألا تقتل ولا تكذب ولا تسرق. وأنت، وأنت، وأنت أيضًا، يا ابن بروتس.

باراسيت. باراسيت. باراسيت. حقيبة الإسعاف البرتقالية، التي يملكها إيريكسن، تُفتَح مرة ثانية وثالثة. كل شيء مرتب بداخلها. حين أمد يدي، تنغلق، ثم تنغلق مرة أخرى، ثم تُسحَب بعيدًا عن يدي، ثم أفتح عينيَّ. لحافي. يداي. أنا هنا فحسب. أنا مكاني هنا. لكن، الآن، ثمة أشخاص في غرفة المعيشة، ويتصاعد صوت موسيقى. وأقف، وتتماوج الغرفة من حولي مثل البحر. أُضطَر إلى الوقوف في مكاني والتمسك بالسرير. تتوقف الأمواج، وأخطو بضع خطوات كي أفتح الباب.

قالت سونيا:

ـ هل هذه رونيا؟

قلت:

ـ أبي، رأسي يؤلمني.

قالت سونيا:

ـ أيتها الفتاة المسكينة!

وقال شخص ما:

ـ هل تودين الاستلقاء على الأريكة؟

قال شخص آخر:

ـ ابنتك تكلمك.

وقال آخر:

ـ اخفض صوت الموسيقى.

لكن لم يخفض أحد صوت الموسيقى.

قلت:

ـ أبي، هل لديك باراسيت؟

ابتسم أبي، ونهض من على الأريكة، وغمز بعينه، ثم ترنح وجلس مرة أخرى.

هزت سونيا رأسها وقالت:

ـ انتظري يا حبيبتي.

بحثت في حقيبتها، وأخرجت علبة.

ـ ها هي. هذا مُسكّن.

قلت:

ـ أبي، هل لديك أي عصير؟

وقفت سونيا وأمسكت يدي.

ـ تعالي يا عزيزتي.

توجهتْ إلى المطبخ. لكنني لست عزيزتها. عليَّ فقط أن أتناول دواء باراسيت. في المطبخ، تركت يدي، ووقفت هناك تصب لي العصير. شخص ما أغلق صوت الموسيقى، وساد الهدوء.

قالت سونيا:

ـ العصير البارد مفيد. العصير البارد دائمًا مفيد.

أومأت. تصاعد الدق في رأسي. فتحت سونيا العلبة وأخرجت قرصًا وناولته لي. وضعته في فمي، ثم أعطتني كوب العصير. الآن، يغنون في غرفة المعيشة. يغنون «من يمكنه الإبحار من دون رياح؟ مين يمكنه التجديف من دون مجداف؟» أبلع القرص. العصير قوي للغاية. أعيد إليها الكوب، وأخرج إلى الردهة، وأرتدي حذائي. تتبعني سونيا.

ـ إلى أين تذهبين يا عزيزتي؟

ـ إلى الخارج.

نظرت إلى غرفة المعيشة. كانت مظلمة قليلًا فحسب، وبها بعض الأشخاص. كانت أغنية وانتهت فحسب.

قلت:

ـ وداعًا.

رد أبي:

ـ وداعًا يا ابنتي الحبيبة.

خرجت إلى الردهة الخارجية، وكانت مضيئة. كان عليَّ أن أغمض عينيَّ. أعرف إلى أين سأذهب، وأعرف كيف أفعل ذلك وعيناي مغمضتان.

لم يفتح آرونسون الباب. طرقت مرة بعد أخرى. هل ما زال الوقت ليلًا أم ماذا؟ لماذا لا يفتح الباب؟ لا يمكنني تحمل صوت الطرْق، والنور في الردهة ساطع للغاية، ولا ينبغي للمرء أن ينظر إلى الرب مباشرة. جلست وأسندت ظهري إلى بابه، ووضعت رأسي بين ركبتيَّ. لا، الآن أعرف ما حدث. الآن أعرف أن آرونسون قد مات.

السنجاب، الذي رأيته ذات مرة ونحن في طريقنا إلى المتحف في رحلة دراسية، كان ملقى في وسط الشارع غارقًا في دمائه. انفجرت أمعاؤه، وتوقفنا عن السير لأن السيارات ظلت تدهسه. وصاح الأولاد: «*مزيدًا من الدم .. مزيدًا من الدم!*» لكن مارون لم يصح معهم. وقف بجواري وفهم؛ لأن الموت هو الموت، والجميع سيموتون. هؤلاء الصائحون أيضًا. لذا كيف يصيحون؟ ووضع مارون قفازه أمام عينيَّ.

نهضت وأمسكت مقبض الباب وأنزلته إلى أسفل. الباب مغلق، والمقبض شديد البرودة. آرونسون ليس هناك. لقد مات. على أي حال، إنه ليس جدي. لا أعرف حتى أين هو. لست حفيدة لأحد، حتى إن رقمه ليس لديَّ. الآن، أعرف ما يحدث: آرونسون يحترق بالداخل؛ لأنني تكلمت عن الحرائق. في الكلام، سحر، أحيانًا

يتحقق. يحترق آرونسون بالداخل. يلقي نفسه تجاه النافذة واللهب يتصاعد من خلفه، وفمه مفتوح. في الكلام، سحر، أحيانًا يتحقق. أقسم على ذلك.

الآن، بدأ مفعول قرص الدواء، وظهر أثره على يديَّ وذراعيَّ؛ لذا يمكنني الآن الخروج قليلًا. مشيت إلى حيث تأخذني قدماي، تمشيان، إلى سلم الحريق، ثم تخرجان من المبنى. هنا، الشارع. هنا، شيء من الضوء. هنا، بعض الناس وبعض السيارات، والوقت ليس ليلًا، إنه مظلم فحسب. يحمل الناس أكياس التسوق وهم خارجون من متجر كيوي للبقالة، وأشعر برغبة في الضحك. كشافات السيارات مضيئة. ثمة صوت ينادي: «*رونيا، ثمة رجل أحمر على إشارة المرور!*»

ملاكان قادمان، أحدهما كبير والآخر صغير، قادمان نحوي. لكنه موسى، ووالده في الأعلى. شكلهما جميل وهما يرتديان ملابس الملائكة، ويرتدي موسى سترة من الجينز فوق الملابس. قلت: «*أوه، إنه موسى بشحمه ولحمه!*» لكنه لم يبتسم، بل قال:

– رونيا، ما الذي أصابكِ؟ لا ينبغي أن تخرجي في عرض الشارع هكذا. ما الذي أصابكِ؟ إلى أين أنتِ ذاهبة؟

– أتمشى فحسب.

حدَّق موسى بي.

قلت:

– ماذا عنكما؟ إلى أين أنتما ذاهبان؟

ـ ذاهبان إلى المسجد فحسب.

أومأت، وبدأت أمشي، لكن والد موسى أمسك كتفيَّ وقال:

ـ أنتِ مريضة.

ـ أنت تتحدث النرويجية.

قال موسى:

ـ رونيا، أعتقد أن أبي على حق. أعتقد أنكِ لستِ بخير.

سمعت صوت جرس. أعرف هذا الصوت، إنه صوت المنبه على الهاتف. أعرف ما معنى ذلك. الآن، سيركضان.

قلت:

ـ حان وقت الصلاة. هيا، اركضا.

لكنهما لم يركضا. قال الأب شيئًا ما بلغتهما. خلع موسى سترته وناولها لأبيه. السترة مبطنة بالفراء، بصوف الغنم. ظللت واقفة في صمت. ثم أخذ الأب السترة وألبسني إياها وأغلق أزرارها، ثم أمسك موسى يدي وقال:

ـ يقول أبي إننا يجب أن نرافقكِ إلى البيت.

ـ لا.

هززت رأسي. دماغي يرتج. كشافات السيارات تضيء المكان، والرجل المتشبه بالنساء يمشي مع كلبه، وكل منهما يتزين بشيء لامع حول عنقه.

قال موسى:

ـ أبي، إنها لا تريد ذلك.

بدأ الأب يتكلم بجمل طويلة الآن، ولا أفهم لغة الملائكة هذه. أحيانًا، أسمع فقط «*مصطفى .. مصطفى*». ثم نظر موسى إليَّ.

قال:

ـ رونيا، يقول أبي إننا يجب أن نصطحبكِ إلى أسرتكِ أو إلى ميليسا.

ـ لا.

ـ نعم.

ـ إذن لن يكون لديكما وقت للصلاة. ما الصلاة التي تريدان اللحاق بها؟

ـ أيمكنكِ الكف عن الحديث عن الصلوات؟ أبي عنيد جدًّا ولن يتركِ هكذا.

بدأنا نسير. مشينا طوال الطريق إلى مدينة بيت لحم. وعند مكان بيع الأشجار، ترك موسى يدي وأكمل سيره إلى المخزن. لا يُوجَد مكان للبقاء فيه هناك، لكنه لا يعرف ذلك. شعرت بأبيه خلفي. شعرت بيديه على كل كتف. وكشاف إيريكسن مضيء فوق الأشجار مثل نجمة شمسية. ابتسمت.

قلت:

ـ عملت هنا سابقًا.

قال والد موسى:

ـ نعم.

ـ هل تعمل؟

ـ نعم.

تحمل سيدتان شجرة أمامنا.

قلت:

ـ شجرة جبلية.

لم يجبني، وصفرت الريح في شعري.

قال الأب:

ـ فلننتظر.

ـ نعم، لننتظر.

ـ هل هذه أختكِ؟

ـ نعم، هذه أختي.

ثم رأيتها، تمشي بخطوات واسعة، ويركض موسى بجوارها. توقفا أمامنا، وأخذت ميليسا تجفف جبهتها بقفازها.

قال والد موسى:

ـ مرحبًا. إنها مريضة.

قالت ميليسا:

ـ فهمت ذلك. أشكرك.

ـ هل نذهب إلى الطوارئ؟

ـ لقد فهمت.

مدت يدها إليَّ وقالت:

ـ أشكركما. يمكنكما الذهاب الآن.

لكن الأب لم يتركني، وأومأ عدة مرات وقال: «*الطوارئ .. الطوارئ*». أمسكني بيد، وأشار بالأخرى. وأومأت ميليسا بدورها: «*نعم*». ثم تقدمت خطوة إلى الأمام وأمسكت يدي وقالت:

ـ أشكركما كثيرًا. حقًّا أشكركما كثيرًا. أتمنى لكما يومًا سعيدًا.

شعر موسى بالحرج، وجذب والده وقال:

ـ حسنًا. لنذهب يا أبي.

ثم تركني الأب.

دفعتني ميليسا بين الأشجار. توقفتْ خلف الأشجار الجبلية. خلعت قفازها وتحسست جبهتي.

قالت:

ـ ماذا فعلتِ؟ ما الذي أصابكِ؟ ولماذا أتيتِ إلى هنا؟

ـ لقد اصطحباني إلى هنا.

ـ لكن يا رونيا ...

كانت صوتها غريبًا للغاية.

قلت:

ـ أو أنني خرجت لبعض الوقت فحسب.

ـ لكن المخزن مغلق الآن. وأنتِ ... ماذا سنفعل الآن؟ وأين ستمكثين؟

هززت رأسي وقلت:

ـ لا أعرف.

نظرت ميليسا إلى السماء وهمست: «*يا إلهي، ساعدني*». وخلعت وشاحها ولفته حول عنقي، وهو وشاح أحمر ضخم. شعرت بالتعب، وأغمضت عينيَّ. حين فتحتهما مرة أخرى، وجدت تومي واقفًا أمامي.

قالت ميليسا:

ـ أترى؟

قال:

ـ لا بد أن تذهب إلى الطوارئ. سأصطحبها إلى هناك.

ـ لا.

ـ لا؟!

أغمضت عينيَّ مرة أخرى والنسيم يداعب وجنتيَّ.

قالت ميليسا:

ـ هل تعرف ما الذي يحدث لأمثالنا حين يذهبون إلى الطوارئ؟ حينها، سيتدخل مركز حماية الطفل وكل الجهات الأخرى.

لم يقل تومي شيئًا في البداية، ثم قال:

ـ حسنًا.

ثم حملني على كتفه مثل شجرة الكريسماس. أنزلني خلف المخزن، وأحضر لي بطانية وكرسي تخييم، وقال:

ـ هنا.

فتح طية كرسي التخييم.

ـ اجلسي هنا.

قالت ميليسا:

ـ لكن يا تومي، إذا جاء إيريكسن ...

ـ ما الحل البديل؟

مرت فترة صمت، ثم قالت ميليسا:

ـ لا أعرف.

أحكم تومي البطانية حولي وقال:

- سيكون الأمر على ما يُرام.

ربت على وجنتي:

- سأكلم زوجتي. أختها ممرضة.

ثم نظر إلى أعلى وقال:

- أوه، لا!

ثم سمعت ما سمعه: سيارة كبيرة بمحرك كبير، وباب سيارة يُصفَق بشدة. نهض تومي وتوجه إلى الناصية ونظر.

- إنه إيريكسن.

رفعت ميليسا القفاز أمام فمها.

قال تومي:

- رونيا، اجلسي هنا في صمت. ميليسا، تعاملي مع الزبائن، وأنا سأتكلم مع إيريكسن وأحاول إبعاده.

خلع طاقيته الصوفية، ومال إلى الأمام، ووضعها على رأسي.

- كل شيء سيكون على ما يُرام يا عزيزتي.

ثم سحب ميليسا معه واختفى.

اعتاد أبي أن يقول: «لا فائدة من الكفاح. انسي الأمر. نتيجة القتال محسومة».

بقيت جالسة، وسمعت شاحنة ترجع إلى الخلف وصوت جرس. سمعت إيريكسن وهو يصيح: «*نعم*». ويصيح: «*تعالَ، تعالَ، قف*». جذبت الطاقية الصوفية إلى أسفل، كانت عابقة برائحة تومي، وجذبت الوشاح إلى أعلى، كان عابقًا برائحة ميليسا. ركض ولد أمامي، ونظر إليَّ، لكن بدا أنه لم يرَني. صاح: «*أمي! أمي! هل يمكنني الحصول على الشجرة الصغيرة؟*» ثم لم يعد ثمة زبائن. فقط، الريح. بدأت تمطر بسرعة وغزارة. رأيت صحيفة تتطاير في الهواء. لا فائدة من المقاومة بعد الآن. أخذت شهيقًا. فليحدث ما يحدث. والآن، الأمر يحدث؛ لأن أمامي الآن تقف فردتا حذاء، وصوت يقول:

ـ *حسنًا. أنتِ تجلسين هنا.*

إنه رجل، لكنه ليس إيريكسن. إنه رجل مختلف تمامًا. جلس ومد يده نحوي.

قال:

ـ اسمي ألفرِد. أنا مزارع.

فكرت في اسم ألفرِد. يداه دافئتان للغاية.

ـ سمعت عنكِ، وأعرف شخصًا تعرفينه.

ـ نعم، عامل الصيانة.

ـ تعالي معي.

ونهض.

ـ لا يمكنني التمشية هنا كثيرًا.

ـ يمكنكِ ذلك معي أنا.

ارتدى قفازيه، ورأيت شجرة كريماس أمام قدميه. رفعها على كتفه، ومد يده الخالية لي.

ـ هيا بنا.

ابتل وجهي لأن اتجاه المطر كان في وجهي تمامًا. لكن ألفرِد دفعني خلفه ليحميني من المطر. كان عريضًا للغاية كأنني أمشي خلف جبل. وقف أسفل عمود النور. أنزل الشجرة، وحينها، رأيت كم هي طويلة. حين نزع عنها الغطاء الشبكي، رأيت كم هي كبيرة.

قلت:

ـ هل هذه شجرة لمؤسسة ما؟

لكن ألفرِد لم يجب. أوقف الشجرة ووضعها على قاعدة، ثم التفت نحوي وقال:

ـ هذه شجرتكِ.

ـ شجرتي؟!

ـ قال أبوكِ إنكِ تريدين شجرة، وقد وعدته.

ربَّت على الشجرة التي لمعت بفعل قطرات المطر وقال:

ـ أجمل شجرة بجوار النهر في مدينة آناباك.

ثم أردف:

ـ لا تبيعيها.

ـ أنا لا أبيع أي شيء. غير مسموح للأطفال بالعمل.

ـ هذا جيد؛ لأن هذه الشجرة غير معروضة للبيع.

خلع قفازه مرة أخرى، ووضع يده على وجنتي. شعرت بدفء شديد في رأسي.

قال:

ـ هذه لكِ.

أغمضت عينيَّ وأومأت.

ـ وداعًا يا رونيا الجميلة.

ثم تركني. أغمضت عينيَّ لأنني لا أريد رؤيته وهو يغادر. سمعت صوت الرياح والمطر وباب السيارة يُغلَق، والشاحنة التي بدأت تدير المحرك. لقد رحل. أصبح وجهي باردًا الآن. شعرت ببرودة شديدة بسبب المطر والبرد الذي يهاجمني. فتحت عينيَّ. لقد رحل. لكن الشجرة ما زالت هنا. ها هي الشجرة منتصبة، لكنها تترنح. تتدلى أغصانها حتى تصل إلى الأرض. نظرت حولي، ورأيت إيريكسن يفتح باب المخزن، وبسرعة مثل السنجاب، اختبأت أسفل الأغصان المتدلية.

المكان هنا جاف؛ لأن أغصان الشجرة كثيفة بشدة فمنعت تسرب مياه المطر. رفعت أحد الأغصان ونظرت إلى الخارج. رأيت إيصالات دفع، وأغلفة كعك، وبقايا متساقطة من الأكاليل تطير على الإسفلت. لا بد أن أصل إلى ميليسا. لا بد أن أخبرها بمكاني. لكنني لا أراها، أرى المخزن فحسب، ورجلًا يركض مع كلبه تحت المطر، ويتناثر الماء حول حذائه. ثم فُتح باب المخزن، وهناك، وقف إيريكسن يتلفت حوله، ويصيح:

ـ ميليسا، تومي، تعاليا إلى هنا!

ثم تحرك نحوي، لكنه لم يرني؛ لأن أغصان الشجرة كثيفة للغاية. وقف أمام الشجرة، وأولاني ظهره، وصاح:

ـ هيا. تعاليا إلى هنا.

لكنني رأيت ما يمسكه خلف ظهره. وجاءت ميليسا وتومي. لكنهما لا يعلمان أي شيء. عصرت ميليسا قفازيها وهي تسير، ورفع تومي كيسًا بلاستيكيًّا من الأرض ووضعه في جيبه، ثم وقفا أمامي وأعينهما مفتوحة.

قال إيريكسن:

ـ حسنًا. دخلت المخزن ووجدت هذا الدفتر. وأنتما تقولان إن الفتاة هنا فقط كي تؤدي واجباتها، وتقولان إنها مصابة بصداع الأطفال، وتحكيان لي قصصًا وهمية وتلومانني.

لم يجب أحدهما، والمطر يهطل كأنه ستارة أمامهما، كثيفًا أحيانًا وخفيفًا أحيانًا.

قال إيريكسن:

ـ هذا نصب. نصب بما يكفي.

رفع الدفتر في وجه تومي وقال:

ـ يمكنك أن تنسى مرتب شهر ديسمبر.

قال تومي:

ـ ماذا؟!

ـ لقد خالفت عقد العمل. أنت المسؤول هنا وأنت الذي أدرت عملية النصب. هذا إخلال بالعقد بكل وضوح.

ـ لكن، أرجوك ...

ـ ترجوني؟! بماذا ترجوني؟

ـ تبقى أسبوعان على موعد الولادة.

ـ كان عليك أن تفكر في ذلك قبل أن تمارس النصب عليَّ. هل تعرف ماذا فعلت أيضًا؟ لقد وظفت طفلة.

وقفت ميليسا هناك وقفازاها بين يديها.

قال إيريكسن وهو يومئ تجاه تومي:

ـ سأُبلغ عنك الشرطة.

وأشار إلى ميليسا وقال:

ـ أما أنتِ فسأُبلغ عنكِ مركز حماية الطفل.

في هذه اللحظة، طيَّر الهواء وشاح تومي، فأخذ شكل خط عريض أسود.

قال إيريكسن:

ـ تعاليا معي إلى المخزن وخذا أغراضكما.

لا أستطيع التفكير. انكمشت بداخل ملابسي. سيحدث الأمر الآن. الأمر آتٍ الآن. حينها، عرفت أن كل شيء صحيح، كل شيء قاله أبي صحيح. كلنا سنموت. ستكون ثمة عواصف رملية وأوبئة، وستشوينا الشمس في الصحراء. قال أبي: «*لا مهرب لنا، لا من رؤوسنا، ولا من العالم*». وهو يقول الحقيقة، بالفعل؛ لأن كل الناس يجلسون داخل رؤوسهم وينظرون من خلال أعينهم، مثل القطط الجالسة في قفص القطط. والآن، يتصل إيريكسن بالشرطة، وأنا أعرف ماذا يعني السجن. حين خرج شقيق مارون من السجن، كان نحيلًا كهيكل عظمي، مع أنه كان في الماضي يلعب تمرين العقلة على عارضة الأرجوحة ويرفع رأسه أعلاها مئات المرات. وأعرف ماذا يعني مركز حماية الطفل. أتذكر أنني ذات مرة رأيت سيدتين تقفان في ردهة المدرسة، وكنا قد أنهينا للتو حصة الألعاب الرياضية، وقالتا: «*مرحبًا إيميلي*». فتحت إيميلي فمها، ثم سارت معهما، ورأينا ظهرها وحقيبة ملابس الألعاب وشعرها المبتل. ثم لم نرَها ثانية قط. ماذا سيفعل أبي بعد ذلك؟ هل سيظل قابعًا في ستارجيت متطلعًا إلى الظلام؟ هل سيظل يتجول في الشقة من دوننا، ويمشي في ردهة المبنى من دوننا، ويذهب إلى صندوق القمامة من دون حتى أن يكون لديه

قمامة ليلقيها؟ ولم أعد أحتمل أكثر من ذلك. عليَّ فقط أن أنام، فوضعت رأسي على الأرض وأوليت ظهري جذع الشجرة ونمت.

في الصيف، مع أبي، حين خرجت من الماء، كنت أرتجف. قال أبي: *«نامي على الصخرة السوداء هناك يا رونيا؛ إنها دافئة»*. ثم أمسك قشة وقال: *«تخيلي ما أرسمه الآن»*.

ثم بدأ يرسم على ظهري، وكان من السهل أن أخمن. كان دائمًا يرسم قاربًا شراعيًّا.

في الشتاء، مع أبي، حملنا حقائبنا في مسيرة طويلة داخل الغابة، وهناك، وجدنا الكوخ. أغلق الباب بالمفتاح وقال: «*لن يخرج أحد هذه الليلة*». على أي حال، لا يُوجَد شيء نفعله في الخارج، ولا تُوجَد حافلات تغادر الآن، ولم تكن ثمة أماكن أخرى يرغب في الذهاب إليها.

اعتاد أبي أن يقول: «تصبحين على خير. نومًا هنيئًا يا لؤلؤتي، يا (شانغري-لا)، مملكتي الخيالية».

استيقظت على صوت ميليسا وهي تناديني. زحفت، وحاولت إزاحة الأغصان جانبًا. الجو مظلم وعاصف بالخارج. سقطت لافتة المكان، وطار كرسي التخييم بين الأشجار، وتمايلت الأشجار إلى الأمام والخلف. تحركت ميليسا ذهابًا وإيابًا خلف المخزن وهي تناديني. وقف تومي على الرصيف وهاتفه المحمول يضيء في يده. زحفت إلى الخارج، وتوجهت نحو ميليسا والهواء يعيدني إلى الخلف. عليَّ أن أُثبِّت كل قدم لأتقدم إلى الأمام. لم يسبق لي أن رأيت منطقة تويَّان على هذا الحال. وضعت يدي على ظهرها فالتفتت. في البداية، وقفت صامتة، ثم أمسكت كتفيَّ وهزتني بين يديها، وصاحت:

ـ أيتها الفتاة اللعينة، أين كنتِ؟

هزتني مرة أخرى وصرخت:

ـ إنه منتصف الليل. ضاع كل شيء ولم أجدكِ هنا. تصورت أنكِ مت متجمدة، أو أن مركز حماية الطفل أخذكِ. لقد بحثنا عنكِ في تويَّان كلها. ما الذي تفعلينه؟

ظلت تصرخ وتهزني حتى سقطت طاقية تومي الصوفية من على رأسي. ثم توقفت. حينها، هبت رياح قوية صفرت في أذنيَّ، ثم سقطت شجرة وتدحرجت نحونا، لكنها توقفت عند أقدامنا، وخيم الهدوء.

قلت:

ـ نمت تحت الشجرة فحسب.

قالت ميليسا:

ـ ماذا؟! كل تلك الساعات؟ في هذه الرياح؟ كيف؟!

ـ لا أعرف.

بدأت الرياح تهب مرة أخرى ولم تسمعني. تهاوت إلى الأرض، وجاء تومي. جلس بجوارها، ووضع ذراعه حول ظهرها.

قال:

ـ لكنها هنا الآن يا ميليسا.

لم تجب. جذبها تومي إلى أعلى.

ـ ميليسا، إنها هنا الآن، ويجب عليكما أن تذهبا للتحدث مع أبيكما.

لكن ميليسا ظلت متعلقة بذراعه مثل دمية. نظر تومي إليَّ.

ـ عليكما الذهاب إلى المنزل. يجب أن تشرح ميليسا أمرًا لأبيكما. هل تعرفين يا ميليسا ما الذي ستقولينه؟

وضعت ميليسا ذراعها حول عنقه كأنها لا تقف على ساقيها.

قال تومي:

ـ اعتدلي في وقفتكِ يا ميليسا.

حاول أن يحرر نفسه منها، لكنها لم تعتدل، ونظرت إليه. تلفت تومي حوله في كل مكان، لكن لم يجد شيئًا يساعده، لا شيء سوى المطر والرياح ومظلة تتدحرج على الإسفلت وهيكلها مشرع من كل مكان، وأنا.

قال تومي:

ـ رونيا، عندما ترين أباكِ، لا بد أن تخبريه أن موظفي مركز حماية الطفل في طريقهم إلى هنا، وربما الشرطة أيضًا.

ـ حسنًا.

ـ وإذا كان سيتوقف عن شرب الخمر فهذا هو الوقت المناسب.

أومأت.

عادت ميليسا تتهاوى على ركبتيها، وسقط طرف معطفها في بركة ماء. لا أرى وجهها، فقط شعرها وذراعيها. ظلت تتمايل إلى الأمام والخلف في جلستها. وقفت خلفها ورفعت طرف معطفها، رفعته كما لو كنت أرفع ذيل فستان العروس.

قال تومي:

ـ حسنًا. لا يسعني أن أفعل ما هو أكثر من ذلك.

قلت:

ـ نعم.

لكنه لم يرحل. ظل يحدق بنا.

قلت:

ـ ما الأمر؟

ـ أنا فقط أتساءل.

أغمض عينيه قليلًا، ثم جفف وجهه بذراعه.

ـ ما الذي سيحدث لكما الآن؟

حينها، أضاء شيء ما. نظرت إلى أعلى. أضاء عمود النور، كأنه يضيء لي أنا. وعرفت ما الذي سنفعله. جاءتني علامات من وقت إلى آخر، لكنني لم أفهم تلك العلامات إلا الآن.

اعتاد عامل الصيانة أن يقول: «*إن المعجزات قد تحدث. أحيانًا، لا يكون ثمة بديل آخر، وهنا تحدث المعجزة*».

قال عامل الصيانة:

ـ أري هذه الورقة لأبيكِ.

أمسك بالورقة والثلج يذوب حولها.

قال أبي:

ـ إلى اللقاء يا ابنتي الحبيبة.

ارتديت حذائي وخرجت.

قال ألفرِد:

ـ إنها شجرتكِ. هذه لكِ.

حينها، دخلت تحت الشجرة. وهناك، أعلى كل شيء، عُلِّقت نجمة.

والآن، أقف هنا مع تومي وأفهم كل شيء. لكنه لم يفهم أي شيء.

عض شفته السفلى.

قلت:

ـ تومي.

ـ ماذا؟

- لا تخف؛ فليحدث ما يحدث.

- لا تتكلمي بهذا الشكل الغريب. هذا الكلام يخيفني كثيرًا.

ابتسمت. كان وجهه شاحبًا.

قلت:

- مع السلامة يا تومي. يجب أن تذهب إلى زوجتك الآن.

جلست بجوار ميليسا. نظرت إلى أعلى من بين خصلات شعرها وقالت:

ـ تعرفين أننا لا نستطيع التكلم مع أبي. تعرفين ذلك.

ـ أعرف ذلك. لكن حاولي النهوض الآن.

هزت رأسها، وتنفست بسرعة وعلى نحو غريب. وبجوار الرصيف، أضاء تومي مصابيح السيارة وقادها مبتعدًا.

قالت ميليسا:

ـ وفي وسط كل ما حدث، لم أستطع العثور عليكِ.

هزت رأسها وتابعت:

ـ كأنه يوم القيامة. كل شيء يضيع من بين يديكِ، وربما يكون موظفو مركز حماية الطفل عند أبي الآن، وتومي خسر عمله. ما الذي سيحدث لزوجته وطفله؟

لكن، هناك في الأعلى، أضاء المصباح، «يرفعنا من الأرض إلى السماء»، كما تقول أغنية الكريسماس.

قلت:

ـ إنه ليس يوم القيامة. إنها عاصفة جودرون.

نظرت إليَّ.

تابعت:

ـ لم يضِع كل شيء من يديكِ. ميليسا، حاولي النهوض. لا يمكننا البقاء هنا وسط العاصفة.

جذبتها إلى أعلى. على الأرض، تطايرت أكواب ورقية وأشياء سوداء كبيرة من البلاستيك لا أعرفها. مشينا وأنا أمسكها خلال برك المياه. لكنني لست خائفة بعد الآن، ولست حزينة بعد الآن، ولست مريضة بعد الآن؛ لأن الضوء يومض أمامنا وأنا أعرف إلى أين نذهب. لكن لا وسيلة لقول ذلك.

ثم وصلنا.

قلت:

ـ انظري، هذه الشجرة من أبي.

لم تجب ميليسا.

رفعتُ فرع الشجرة، وظلتْ واقفة في مكانها.

قلت:

ـ أجمل شجرة نهر في آناباك.

هزت رأسها.

ـ ميليسا، المكان جاف بالداخل. ازحفي وانزلي تحت الشجرة.

لكنها لم تحرك ساكنًا. جذبتها إلى أسفل، وسحبتها إلى الداخل. في الخارج، المطر في كل مكان، لكن هنا جاف كما لو كانت

جزيرة. خلعت سترتي وقلبتها لتكون بطانتها المصنوعة من صوف الغنم إلى أعلى، ثم رفعت ذراعي ميليسا وخلعت عنها المعطف.

ـ أترين؟ استلقي هنا.

دفعتها إلى أسفل، ووضعت رأسها على السترة، وغطيتها بمعطفها، ثم جلست أفكر حتى تنتهي العاصفة، لكن يبدو أنها لن تنتهي. يبدو أنها تشتد أكثر فأكثر. فكرت أنني في الصباح سأخرج وأنظر إلى الخارج، لكن لم يأتِ الصباح بعد. ما زال الليل مخيمًا. رأيت مصابيح الشوارع تترنح، وتحت إضاءتها، رأيت خطوطًا من المطر. لست خائفة، لكن ميليسا خائفة، وتئن مثل قطة.

قلت:

ـ أتريدينني أن أنام بجوارك؟

أومأت برأسها. استلقيت خلف ظهرها، وجذبت المعطف ليغطينا معًا، وشعرت بها تبكي.

قلت:

ـ تذكري الغابة.

لم تجب.

ـ تذكري الكوخ في الغابة.

ـ لكن ...

ـ تذكري المدفأة بداخل الكوخ.

وضعت فمي بجوار أذنها، وحكيت لها عن الثلج والدرب في الغابة.

- تصعدين التل، وترين المزرعة، ثم ترين الكوخ. أترين النور في النافذة؟

نامت الآن. يمكنني أن أعرف ذلك من صوت تنفسها. استلقيت على ظهري وأغمضت عينيَّ. حين استيقظت، كان الضوء قد بزغ.

ـ ميليسا، لنذهب من هنا.

رسمت الشمس خطوطًا على وجنتها.

ـ ميليسا، لا بد أن تستيقظي.

فتحت عينيها وقد أحاطت بهما قذارة برك المياه. رمشت بعينيها وجلست. ألبستها معطفها، ثم أبعدت الأغصان.

قلت:

ـ أترين؟ هذه غابتنا. أترين؟ الآن، تفهمين ما أعني؟

أمسكت يدها وجذبتها إلى الخارج، وأخذ الثلج يتساقط من الشجرة ويلمع، ثم أخذت خطوة إلى الأمام. فوق الشجرة، السماء أشد زرقة من أي وقت مضى، والأشجار أشد بياضًا من اللون الأبيض. أخذت خطوة أخرى، وازداد الضوء أكثر. نظرت إلى هناك، حيث يجلس السنجاب، ونعم، هناك، التفَّت الأشجار وصنعت ممرًّا.

قلت:

ـ انظري، هذا ممرنا.

أومأت ميليسا برأسها.

سألتها:

ـ تعرفين إلى أين يؤدي؟

ـ نعم.

ـ إذن، هيا بنا. علينا أن نذهب يا ميليسا.

هكذا، انتهى الأمر. بدأ، ثم استمر، ثم انتهى. نعم. تنمو البذرة لتصبح شجرة، وتنبت لها أغصان وثمار وكل شيء، ثم تموت. يخترع الناس آلهة، ثم ينسونهم مرة أخرى، ومع ذلك، يستمرون. الفصول تأتي وتذهب. لا يُوجَد مكان لبيع أشجار الكريسماس خلف محطة الوقود الآن، تُوجَد فقط بقايا أشجار على الأرض. وهذه هي دورة الحياة. أحيانًا، تأتي أيام، حين تكون الشمس ساطعة على الأحجار، وتنام هناك على بطنك، وتغوص في البحر، ويبتسم لك شخص ما تحت الماء، ثم يتحتم عليك أن تصعد إلى سطح الماء وتحصل على بعض الهواء. هكذا يستمر الحال، لكنه لا يستمر كذلك معنا.

كان علينا أن نمشي فحسب، فمشينا. أمسكت كل منا يد الأخرى. كان معطف ميليسا منسدلًا في الثلج كأنها عروس لكن بثوب أسود. بدا كأن الغابة تنمو في أثناء سيرنا؛ لأن الغابة كانت كثيفة للغاية من حولنا. من السهل المشي على الدرب؛ لأن الثلج تجمد عليه بسب كثرة المشي. ثم ظهرت الغابة لنا، وسرنا بجوار البحيرة، وإلى أعلى التل حيث يعيش الثعلب. ومن هناك، رأينا نقطة تجمع المتزلجين.

*«تواصلين المشي، وحينها، ستعرفين ما سترينه».*

نعم. فناء الكوخ في الصباح. هناك، تضيء الشمس كل شيء. وفي الليل، يضعف الضوء، وندق بأحذيتنا على عتبة الباب كي ننفض عنها الثلج. ثم يحل الظلام. نجلس على السلم، ونتطلع إلى النجوم، وأفكر أحيانًا في منطقة تويًّان.

فكرت في تومي، وتمنيت أن يكون طفله بخير، وألا يعمل عند إيريكسن مرة أخرى أبدًا. نحن آسفتان؛ لم نكن نريده أن يتحمل الذنب بمفرده. فكرت أيضًا في عامل الصيانة، وتمنيت أن يكون بلده بخير. بالتأكيد يعرف أنني لم أقصد الإساءة عندما تكلمت عن لغته النرويجية؛ إنه يتحدث النرويجية بطلاقة، كان بوسعه أن يفوز في مسابقة للغة النرويجية. فكرت في آرونسون، وتمنيت أن ينثر

أحدهم الحصى جيدًا على الثلج حول البناية، وأن يبقى الإكليل في حالة جيدة حتى رأس السنة. أعتقد أنه سيظل كذلك؛ لأنني اخترت أجود الأنواع. ثم فكرت في أبي. دائمًا أفكر في أبي.

أسندت رأسي إلى إطار الباب، وحلمت، تمامًا كما علمني. في الحلم، رأيته يرتدي كنزته الصوفية المعتادة وعلى وجهه ابتسامة كبيرة. رأيته يأتي ماشيًا عبر الغابة. إنه يعرف الطريق: يمر بجوار البحيرة، ويصعد المنحدر، هناك، حيث يعيش الثعلب، ثم يرى الكوخ، ويرى الصخور الكبيرة أمامه، ثم يرانا، فيقول:

ـ أهلًا يا ابنتيَّ. هل هاتان هما الماسة والزمردة، الجالستان هناك؟

يقول إن الضوء، الذي يشع منا، ساطع للغاية، إلى درجة أن عليه ارتداء نظارته الشمسية.

«جوهرة صغيرة مشحونة بالعاطفة... مع تطوُّر القصة، ينفطر قلبك على الطفلتين وعلى أنفسنا أيضًا في هذا العالم الذي بنيناه، حيث المال له قيمة أكثر من اللطف».

نيويورك تايمز

«قصة من منظور طفلة عن أحزان ومشكلات الكبار، تُروى بأسلوب درامي ساخر وفعَّال. رواية قصيرة ولكنها مؤثرة، ويمكن قراءتها في جلسة واحدة».

The Spectator - المملكة المتحدة

«مؤلمة وصادقة، تُلمِّح إلى القصة الخالدة «بائعة الكبريت»، لكنها تحمل كثير من الأمل... رائعة بحق».

Merkur – ألمانيا

«في هذه القصة التي تبدو بسيطة ومباشرة، تصوِّر الكاتبة من منظور الطفلة رونيا قصة عائلة محكوم عليهما بالهشاشة، حيث يُضطر الأطفال إلى النضوج أسرع مما ينبغي، والاعتماد على أنفسهم، بل ورعاية آبائهم. رواية آسرة وحزينة ومليئة بالطيبة، تؤلم وتواسي في الوقت ذاته، لكنها قبل كل شيء تمسك بك من الصفحة الأولى حتى الأخيرة. أولئك الذين نادرًا ما يبكون عند القراءة سيجدون صعوبة في كبح دموعهم».

¡Hola! - إسبانيا

9 781998 800490

منشورات حياة